

و. محمد خنيزة

روايات مصرية الجيب

43

إلى الشمال

سافاري

Looloo

www.dvd4arab.com



مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد -
كما يقول الغلاف - كى يبقى حياً ويبقى طبيباً ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ،
(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال
أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصقاع يضيفون حرف ألف بين الراء والياء
لتحول الكلمة إلى (سافاراي) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب
هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى
يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار
(أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى
للفظة (سافارى) فلتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش
ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات
سياسية لا تنتهى وأهل متشككين وبينه لا ترحم ..

الوحدة نولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب
مصرى عادى جداً ، فقط وجد كثيراً من عوامل الطرد فى وطنه
فأطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. تطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطيبة
الكندية الرقيقة (برنات جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك
الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرترقة الذين لا يمزحون ،
والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك - كما قلنا - من الصير أن تجمع بين شيئين : أن
تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص ..
وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف
والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن
يصب هذا الخليط فى كنوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا
المجنون بعد إلا فى مرأتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شيء ..

1 - تورنتو ..

لقد انتهت إجازتى فى مصر ..

حقاً لم تكن إجازة بالمعنى الحرفى للكلمة ، لكنى على الأقل اطمأنت على أسرتى وقضيت أيلاماً من المتعة ، وتعرضت للقتل .. هذه نقطة مهمة لا تكتمل السعادة إلا بها ..

أعتقد أن برنات أحبت إقامتها القصيرة فى مصر .. هى تحب ذلك الاختلاف الواضح بين البلدين والحضارتين ، فهذا يشعرها بأننى فريد . لو كانت مصر تشبه ألمانيا أو فرنسا لما حمل لها الأمر أية إثارة ..

للمرة الأولى اتطلى إلى بلد بارد فيه قوم شقر ببض البشرة ، هو كندا .. بلد زوجتى ..

لم أعتد أن أرى وجوهاً غير سوداء أو أشعر بالبرد .. لقد تغلقت أفريقيا فى لى إلى حد لا يوصف ، للرجة أننى شعرت منذ البداية بتحيز عداوى مذعور ، شبيه بما كان العبيد المخطوفون من أفريقيا يشعرون به وهم مقيدو الأرجل فى قاع السفن العسلاقة .

لا بد من أكواخ وقبائل . لا بد من سحرة وكسافا .. لا بد من (داوا) .. لا يمكن تخيل الحياة من دون هذه الأشياء ..

هذه المرة - برغم كثرة أسفاري - أنا طفل يرى العالم لأول مرة . سوف يجرونني من شعري إلى ميدان عام حيث يطلقون على الرصاص .. لا شك في هذا . لن يكونوا ودودين .. سوف يكونون نموذجًا للسماجة وثقل الظل ..

لكن (برنات) كانت سعيدة جدًا . هذا طبيعي وهي لم تعد لكندا منذ أعوام طوال . هذا ليس طبيعيًا لكن القصة تحمل خلفيات معقدة كما تعلم ، فقد كانت تريد أن تحقق ذاتها بينما كل شيء كان معًا لها في وطنها كي تعيش حياة هائلة بلسمة ثرية .. كانت تريد أن تغامر وأن ترى الأحرار وأن تعالج الأطفال السود تحت الأشجار ، وكان التصامم مع أسرتها .. أبوها لم يغفر لها هذا قط ، لكننا في كندا حيث تتم هذه الأمور بطريقة الغربيين الباردة ..

الآن هي عائدة بعد كل هذه الأعوام مع زوجها العربي الذي لم تستشر أحدًا بصدد الزواج منه . لا شك في أن رد فعل أبويها لن يروق لي ..

أتذكر الآن بلا توقف مشهدًا مماثلًا في فيلم (قول الصين العظيم) ، حينما تدعو الفتاة الصينية الحسناء خطيبها المصري إلى الغداء مع أسرتها . الأب لا يطيق الفتى ولا يتحمل وجوده ،

وهكذا ينهال عليه بالشتائم بينما الفتى لا يفهم ، لكنه يردد فى تهذيب أبله : **تُشكرًا يا عمى .. هذا بيتى فلا تقلق .. »**

لحسن الحظ لفتى أجيد الفرنسية والإنجليزية فلن يقدر أحد على توجيه الشتائم لى وأنا لا أفهم ، ما لم يتكلموا بالفلنندية أو السنسكريتية طبعًا ..



مقاطعة (أونتاريو) ..

ثانية أكبر المناطق هنا بعد (كويبك) . وتقع ملاصقة للولايات المتحدة ..

يعرف كل المصريين كندا تقريبًا ، حتى لأشعر أحيانًا بأننى الوحيد الذى لم يرها من قبل .. يعرفون أن عاصمة مقاطعة (أونتاريو) هى (تورنتو) ، وعاصمة كندا نفسها (أوتاوا) تقع فى ذات المنطقة ..

هنا سوف ترى بحيرة (أونتاريو) التى منحت للمنطقة اسمها ، وشلالات نياجرا .. شلالات نيلجرا هنا ؟ .. هذا غريب .. كنت أحسبها فى الولايات المتحدة فقط .. وهذا خبر ممتاز .. معناه لفتى ساراها دون أن اضطر للذهاب للولايات المتحدة وهو أمر شبه مستحيل . لو أن فى هذه البلاد الجميلة جزءًا من سور

الصين العظيم ورافداً من نهر الأمازون لصارت للحياة رائعة .
طبعاً لن تغير الجغرافيا معالمها إرضاء لمزاجي الخاص .. »

كانت (برنات) كطفل صغير وهي تشرح لى كل شيء فى
الطريق من المطار .. تفاصيل كثيرة جداً جداً لدرجة أننى لم أعد
أفكر شيئاً على الإطلاق ..

— « أنظر هناك .. هناك ! »

— « هناك .. نعم .. »

— « هذا البرج .. »

— « نعم .. البرج .. »

تقول وهى تتواثب :

— « برج CN .. كان أعلى برج فى العالم حتى بنت (بى)
برجها الخاص ، وهو يعتبر رسمياً من عجائب الدنيا السبع
الجديدة .. CN معناها (الكندى القومى) .. نحن فى قلب مدينة
تورنتو الآن .. »

ونظرت للبرج فهذا لى عقلاً حقاً من الطرق الذى يتبعك فى كل
صوب ، لكنى رأيت مثله مراراً .. لا يستحق الأمر كل هذا الصراخ .
وبعد قليل بدا أننا نخرج من تورنتو إلى الضواحي المحيطة بها ،

وبدأت أرى اتساعات هائلة من اللون الأخضر والجمال .. الجمال الذى سرقه البريطانيون والفرنسيون من الهنود ..

عرفت أننا فى القطاع الفراتكفونى من (أونتاريو) حيث يقيم المتكلمون بالفرنسية . إن (كويبك) هى أكبر تجمع للمتكلمين بالفرنسية فى كندا تليها (أونتاريو) مباشرة . على كل حال يجيد أكثر الكنديين لغتين هما الإنجليزية والفرنسية . ويتكلم خمس الكنديين الفرنسية فى بيوتهم .

مرحباً بك يا صاحبي فى مملكة السيد (كرستيان جونز) ..
والد زوجتى ..

رجل الأعمال الكندى الناجح .. (التايكون) .. لاحظ أن كلمة (تايكون Tycoon) لا تدل على الثراء الفاحش فقط ، بل تدل كذلك على سعة النفوذ الذى تخالطه لمسة من الشر .. كلمة دقيقة جداً ..

أسهم عديدة فى صناعة السيارات وقطاع الطاقة ، وله عدة شركات لتجارة الأوراق المالية ، فتورنتو هى المركز المصرفى الأهم فى كندا كلها ، بل هى عاصمة كندا الاقتصادية . الرجل كذلك له استثمارات عديدة فى قطاع المعلومات فى منطقة (ووترلو) فى جنوب أونتاريو ، وله عدة شركات سياحة .. إن السياحة - خاصة ما يقوم به الأمريكان - تشكل دخلاً هائلاً هنا ..

بإختصار يمارس هذا الرجل كل ما لا يفهمه ولا لطيفه ، ويجنى من ذلك الكثير .. لابد أنه يزداد ثراء بينما لنا أكتب هذه السطور ..
بالنسبة له أنا ذلك الوغد الذى خدع ابنته ليظفر بكل هذه المملكة ، بينما كل ما أريد أن أخبره به هو أن يخرس .. لا أريد شيئاً منه .. كان عنده شيء عزيز ثمين جداً وقد نلتها بالفعل ، ولا أريد شيئاً آخر ..

بالطبع كنت أعرفه ورأيت في صور عديدة ، كما أتى كلمته في الهاتف مراراً ..

ليس سوى المنظر .. أعتقد أنه وسيم .. هذا الأنف الحبيب ..
ينحدر إلى ما فوق الشفة الرقيقة .. هذا الجزء أعرفه ويجعل قلبى يخفق بشدة ، فقد منحه لـ (برنات) ضمن هدية الجينات التى أخذتها منه ..

لاحظت كذلك أنه يكور أنفه عندما يضحك بأسلوب (التشنكية) ، فقد ورثتها منه إذن .. فيما عدا هذا بدا لى أن (برنات) أخذت كل الباقي من أمها ..

كان أشيب الشعر فى الستين من صرود تقريباً ، شديد الأناقة ..
وله أسلوب على صارم غريب جداً .

أما عن الأم فهي شيء صغير أنيق فائن .. قصيرة الشعر مما يعطيها طابعاً صبيحياً لطيفاً . منذ اللحظة الأولى عرفت أنها ستكون صديقتي وأنتى سأهيم بها .. (برنات) أخرى عجوز .. ويبدو أنها منحت ابنها كل ما هو جميل فيها ما عدا (التشنيكة) ..

كانت الأم سكرتيرة تعمل معه في أول شركة افتتحتها في حياته ، وقد نما الحب بين قلبيهما وتزوجها .. يخيل لي كأنهما فنانان اجتمعوا معاً منذ أعوام ليصنعا أروع وأجمل شيء في العالم ..

لكن على ألا أعتمد على انطباعات مسبقة .. لقد تعرفت من خلال مذكراتي هذه أنني أكره الرجل كالجحيم منذ أخبرت (برنات) أنني أحبها .. معنى هذا أنني متعصب فعلاً ، ولو قال لي (صباح الخير) لاتهمته بالوقاحة وقلة الألب ، ولو قال لي (مساء الخير) لوجهت لكمة لفكه ..

يجب أن أصبر وأراقب ..

2 - أسرة لطيفة ..

يبدو لي المشهد كأنه فيلم سينمائي ..

حمام سباحة في حجم البحر الأبيض المتوسط ، تحيط به للتماثيل والكشافات وتسبح فوق مائة بالونة ملونة .. وهناك مقاعد مريحة تحيط به .. هناك ما يشبه غابة استوائية من أشجار متنوعة ، وهناك حصان أبيض جميل يمشي به السائق وسط هذه الخضرة .. هناك نافورة لها طابع إغريقي يخرج الماء منها في أشكال هندسية تتغير كل دقيقة . هناك مجموعة سيارات باهظة الثمن ، تسمح لك بتحقيق الحلم الطفولي أن تتركب سيارة تناسب لون ثيابك في كل يوم .. هناك خيمة شرقية ساحرة لا ينقصها إلا طاووس وبعض الجوارى ..

هناك جيش من الخدم والوصيفات ..

هذا الرجل ثرى جداً .. جداً ..

يجب أن أقول إنه خصص لنا جناحاً في بيته ، ذلك المكان الذي يعبر الحدود الفاصلة بين الفيلا والقصر .. لا أعرف ما هو حقاً .. لكنها المرة الأولى التي أنام فيها في غرفة نوم باتساع استاد القاهرة ، وبها أنترية ومكتب ومكتبة وشاشة تهيئ من السقف و .. و

كنت بالطبع أفضل أن نقيم منفصلين في فندق أو شيء مشابه
لكن هذا كان مستحيلًا من الناحية المالية . لقد علمت (برنات)
فهي لهما الفترة لا بأس بها ..

يجلس هناك بالقمص المشجر جوار حوض السباحة وأمامه
كوب عصير عملاق ، يطلقون عليه (بينا كولا) وقد غصمت
فيه قطع من الأناناس .. يبدو مغربًا لكن (برنات) أنفرتني أنه
يحوي خمر الروم ..

لا .. لا يمسك بسجار وإلا لبدأ لي الأمر سينمائيًا للدرجة
لا تطاق .. ولا تنسى الأمر حارمًا خاصًا متفقًا يقف خلفه
والسماعات في أذنيه .

رأت (برنات) نظراتي فقالت همسًا في خبث :

— « هل أدار هذا الشراء رأسك ؟ »

حككت رأسي وأردت أن أقول شيئًا على غرار (أنت عندي
أهم من مال الدنيا) ، لكنني وجنته مبتذلًا سخيفًا .. طبقًا من
الجميل أن يملك المرء كل هذا ، لكن يملك (برنات) كذلك ..

هزئت رأسي بما قد يعني نعم أو لا .

قالت وهي تعبت في خصلات شعرها :

« المنظر يختلف كثيرا عن لكواخ (الكركويو) .. هه ؟ »

.. « نعم .. وإني للغر حقيقى .. يبدو أنني لن أفهمك أبدا ..
لنا أعرف منذ البداية أنك تخليت عن الثراء من أجل (سافارى) ،
لكن الأمر يبدو عسير للتصديق وأنا لرى وألمس كل شيء ..
أنت تركت هذا كله ؟ »

.. « أبى لم يكف عن اعتباره مخبولة .. »

.. « يبدو أن عضوية نادى من يرونك مخبولة تتسع لاثنتين »

نظر لى السيد (كرسيتيان) .. الأب العظيم وقال :

.. « هل تجيد ركوب الخيل ؟ »

هزئت رأسى .. فطبت ذلك فى منطقة الهرم عدة مرات ،
ولكنها خبرة غير كافية طبعا ..

قلت (برنالت) :

.. « أنا أتمنى أن أفعل ذلك الآن .. لكن ستكون حملة حقيقية ..

يبدو أن رجمى لن يتخلى عن عادة فقد الأطفال بسهولة »

عاد يسألنى فى فضول :

.. « هل تكره اليهود ؟ »

سؤال سخيف ولا مجال له .. الرجل مصمم على أن يفعل بالضبط كل ما توقع أن سيفعله .. قلت له في برود الكلمات التي قلتها ألف مرة من قبل : أكره اليهود إذا تحولوا إلى صهيانية ، وفيما عدا ذلك هم كالبنوبيين أو الهندوس .. هذا بينهم وهم أحرار ..

لقد قلت هذه الكلمات حتى صرت كلما قلتها أشعر بأنني أدافع عن نفسي ، والملاحظ أنني لم أر غريباً يقتنع بها قط كثم يتوقعون أن أقول هذا ..

هكذا راح الرجل ينتهز أية فرصة لا يجرى فيها مكالمات هاتفية أو يتفق على أشياء غامضة ، كي يوجه لي أسئلة لا تنتهي .. ثم إنه لا يكف عن الأكل وهذا يضايقتني ...

أنقذتني (برنات) عندما طلبت أن تأخذني في جولة أرى فيها معالم المدينة ..

قلت لي وهي تتجه لإحدى السيارات الرياضية الأنيقة ، فتدير محركها :

— « سوف ترى كل شيء في كندا .. أعدت لك برنامجاً ممتازاً .. لا تقلق .. لن تمضي الإجازة تجيب عن أسئلة لي .. »

استرخيت في المقعد وعبثت بلحيتي مفكراً :

« يتصرف كئنى أطلب بك .. لقد تجاوزنا هذه المرحلة منذ زمن .. تصورى أننا زوجان وطفلى فى لحشتك الآن .. عليه أن يقبلنى بدلاً من أن يمضى الوقت فى استجوابى »
 قالت ضاحكة :

« هكذا أبى .. يمقت أن يوجد شىء فى العالم لا يتحرك داخل خيوط عنكبوته .. لابد أن يعرف عنك كل شىء ويشعرك بعدم الراحة . لهذا فررت من قبضته إلى الكاميرون .. وهو لن يفكر هذا لى أبداً .. عملت وتزوجت من دون سيطرته ، ولربما يحاول أن يجعلنى أنجب حسب تعليماته »

كانت تفود السيارة ببراعة مذهلة ، لكنى لم أر أن الأمر صعب لهذا الحد .. فقد بدت لى هذه السيارة بالذات كأنها ذات نكاح صناعى .. تعرف ما يفكر فيه لقدما وتتصرف على هذا الأسس . وشغلت مشغل الأقراص لينبعث صوت (سلفى فارتمان) الساحر تقى (نيكولا) ... نيكولا .. أول دمة سالت من عبنى كنت من أجلك أنت

قالت لى فى خبث :

« ألا تتوى أن تتعلم القيادة ؟ »

« سيكون فالأ سينا .. معنى هذا أننا لن نكون معاً .. »

ابتسمت ثم عادت تسألنى :

— « ما رأيك فى أمى ؟ »

— « رائعة . همت بها حباً .. للتفاح لا يلقى إلا من شجرة

تفاح .. »

نظرت لى والتمعت فى عينيها نظرة صارمة جادة وقالت :

— « ليست سعيدة .. أعنى أمى .. »

— « هه ؟ .. بهذه السرعة ؟ لم أضيقها قط »

— « لا أتحدث عنك .. أتحدث عن سحابة عابرة من الأسى

والهم فى عينيها .. لنا أشعر بها أكثر من سواى .. أمى ليست

سعيدة .. »

كنت أقول لها إنه من الطبيعى ألا يشعر من يعيش مع أبيها

بأية سعادة ، لكنى أحجمت .. فسألتها :

— « ما المصعب ؟ »

— « لا أرى .. لا تريد أن تعكر صفو زيارتى ، لكنى

سأعرف كيف أنتزع المر منها .. سوف ترى .. »

قلت لنفسى إن هذه الأمور العقلية ليست من شأنى .. هؤلاء

القوم مترفون فعلاً وحياتهم خالية من المشاكل ، فلا شك أن

مشاكل أمها من النوع الوجودى أو الفلسفى .. هل للوعى وجود بعد الموت أم لا ..؟

نحن الآن نعود إلى برج CN الذى تراه من كل مكان فى تورنتو تقريباً .. لقد بنى هذا البرج منذ ثلاثين عاماً للاتصالات فقط ، عندما ارتفعت ناطحات السحاب فى أرجاء المدينة وأتلفت الاتصال . هكذا تم تشييده ليكون أعلى شىء فى المدينة كلها .

تجربة مرعبة هى أن تمشى فوق أرضية من زجاج على ارتفاع 113 طابقاً عن الأرض ، كأنك بلفيس فى قصر سيدنا سليمان .. زجاج لا تصدق أنه لن ينهار تحت قدميك .. والحقيقة أنه كما قالت لى (برنات) يتحمل وزن سبعة أقراس نهر !

هناك مطعم جلسنا فيه .. مطعم من المطاعم التى تدور 360 درجة طيلة الوقت لترى المدينة كلها .. مدينة حديثة جداً وتشعرك بالدوار من غير أن تدور حول نفسك . فجوة واسعة فعلاً بيننا وبينهم ، وبرغم هذا نحن فى كندا حيث يشعر الناس بالتضائل أمام الأمريكان ، فكيف تكون (لاس فيجاس) إذن ؟

نظرت لى برنات طويلاً ، وابتسمت .. لحظة من تلك اللحظات التى تشعر فيها بأنه لا داعى للكلمات ، فنحن روح واحدة ، وقالت بعد قليل :

— « هل أنت سعيد ؟ »

— « جدًا .. »

وما لم أفكه لها هو إن الأماكن لا تحدث فرقًا لدى .. كنت سعيدًا بالقدر ذاته وهي معى فى قبو الشعابين أو فى لقفاص لكلة لحوم البشر .. المهم أن تكون هى هناك ..

غريب جدًا أن يكون إنسان مصدرًا مشعًا للسعادة . الإنسان يأخذ السعادة من مصادر خارجية أو هذا ما يخيّل لى . لهذا من الغريب بالنسبة لى أن يمنح الإنسان السعادة ، وأن يتحول إلى شمس بعد ما كان يطلب النقاء من الشمس

كنت غارقًا فى هذه الخواطر وأنا لرمق عينيها الصافيتين .. عينيها الشفافتين الصافيتين .. عندما قالت لى :

— « أعتقد أن أبى هو المشكلة .. »

— « عم تتكلمين ؟ »

— « أبى .. هذا هو السبب الوحيد الذى يفسر حزن أمى
الدفين الغامض ! »

3 - أنا ومسر (جونز) ..

الفارس المقنع بلوح بالرمح فيهلل الجمهور ، ثم يندفع على
سهوة حصاته المدرع والشرر ينبعث من حوافره ، ليضرب
الزكية المعلقة في الهواء وتتأرجح بلا توقف ...

الرمح يخترق الزكية في براعة لا تصدق ، من ثم يصفق
الجميع .. بينما يواصل الحصان الخبيب بالقصور الذاتي والأرض
ترتج

لزمنا العصور الوسطى .. من أهم معالم تورنتو السياحية ،
حيث تجلس في ديكور قلعة من القرون الوسطى وتلتهم الطعام
على مائدة تذكرك بمآذب فرسان المائدة المستديرة .. راقصات
بالدف وفرسان يتبارزون مستعرضين براعتهم ..

كنت أفكر في كلمات (برنات) ..

الحقيقة إنني صرت أعرف الكثير عن الشخصية الغربية بحيث
أعرف ما يضايق الأم . طبعا هي مصابة بالمرطان .. هؤلاء
الغربيون لا يموتون إلا بالمرطان فيما يبدو لأنهم يأكلون طعاما
غربيا مرطنا ، ولأنهم يعيشون أكثر من اللازم . فلا يموتون
بأمراض القلب أو الفشل الكلوي أو حوادث القطارات في سن

صغيرة مثلنا .. عندما يبلغ المرء سنًا متقدمة تعلن خلاياه عن جنونها ، بينما نحن العرب نموت قبل أن تجن خلاياتنا .

أعتقد أن الأم مصابة بالسرطان وتخفى ذلك عن ابنتها كي لا تلحد إجارتها . ربما هو الأب ؟ .. كلا .. هذا الوغد لا يموت بسهولة ولا يصاب بالسرطان ..

على كل حال لم أرد التدخل في شيء .. إن (برنات) تفكر بصوت عال .. فلأدعها تفكر كما تشاء ما دامت لم تطلقني بشيء ..

الفارس الأسود يلوح بالرمح ويهجم من جديد

الليل ..

للليل والظلام المريح الجميل ما عدا ذلك الضوء الخافت المضاء جوار (الأنتريه) ..

لكنى عاجز عن النوم .. لم أعتد أن أشعر براحة في غرفة باتساع استاد القاهرة كهذه . فكرتني عن غرفة النوم هي الاحتواء كرحم الأم .. ضيقة نوعًا .. ضيقة بشكل مقبول .. لا أنكر أنني نمت في حياتي مثلما كنت أقام في بيتنا ، حيث لم

يكن لى فراش خاص .. بل أعدوا لى مرتبة وضعوها فوق صندوق جوار فراش أخى ، وهكذا كنت محشوراً فى ركن ضيق جوار الجدار يطلقون عليه اسم (الكهف) ، وكان هذا الشعور بالاحتواء يجعنى أغيب عن العالم بمجرد أن أضع رأسى على الوسادة ..

(برنالت) نائمة فى سلام وشعرها ينتثر على الوسادة .. فى الضوء الخافت يسهل أن تصبها حورية بحر نصت على صخرة بانتظار المد ...

نهضت مترنحاً ووضعت الروب على منامتى واتجهت إلى الشرفة ..

لُححت الستار الذى يغطى النافذة الجدارية العملاقة التى تطل على الحديقة .

من هنا يمكنك أن ترى حمام المسباحة يسبح فى أضواء خلفته ، وقد ترققت عليه ، وترى الأشجار للسكنة والأرجوحة .

لُححت الباب فى حذر وخطوات إلى الخارج ولُحنت نفساً عميقاً ..

برد .. برد .. لنا الذى اعتدت حر أفريقيا حتى لم يعد يؤثر فى مشيت فى الحديقة بضع خطوات متجهاً نحو حمام المسباحة ..

لو لم يخلبنى للنعاس وأنا أرمى الماء الرقيق فلن ألام أبداً ..
للماء والنار تأثير منوم لا شك فيه ..

دنوت أكثر .. ثم تصلبت ..

هناك شخص جالس على المقعد الطويل المواجه للحمام .. شخص
جلس وقد فرد ذراعيه عن آخرهما ورفع وجهه للسماء ...

بمزيج من التدقيق ميزت الشعر القصير والجسد الضئيل ..
إنها (حماتي) بلا شك ..

الثانية صباحاً ؟ .. ماذا تفعل هنا بالضبط ؟

هذه الرائحة .. أنا أعرفها ...

اقتربت أكثر فرايت أنها مغمضة العينين ، فلم تشعر بوجودى
فقط .. فقط هناك تلك الزجاجاة من الكحول أمامها . زجاجة فارغة
تقريباً ..

اقتربت أكثر وهمت فى حذر :

« مدام (جونز) .. »

أنا وممزر (جونز) .. اسم أغنية قديمة جميلة جداً تتحدث
عن الحب الذى نما كالنبات للشيطنات بين الفتى وامرأة متقدمة

فى العمر ، وكلاهما يعرف أنه حب خطأ لكنه أقوى منهما ..
لحسن الحظ أن هذا لن يحدث معى وإلا لكان على أن أشرب السم
هنا والآن ..

سم ؟

أعرف هذه الرائحة . فنكرها الآن ..

به منوم معروف اسمه (كلورال هيدرات) له رائحة لعينة
كلها قائمة من مختبر أحد السيميائيين فى القرون الوسطى .
هذه المرأة قد شربت زجاجة كحول كاملة مع جرعة محترمة من
الكلورال ..

طريقة ممتازة كى تنام فلا تصحو ثقية ، سواء فعلت هذا
عمداً لم عن طريق الخطأ . هناك ممثلة أمريكية شهيرة اسمها
(آن نيكول سميث) ماتت بهذه الطريقة وقيل إنها غلطة

هرعت نحوها وتأكدت من أنها حية ترزق لكن هذا لن يدوم
لأن تنفسها ثقيل فعلاً ..

— « مدلم (جونز) !!! »

وهزأت رأسها بعنف ففتحت عينيها وصرخت ..

قبل أن تفهم ما يحدث كنت قد بسمت بصبعي في فمها لأضغط على مؤخرة لسانها . قلت في جزع وهي تعض على لسانها حتى لامتها :

— « أع ع ع ! .. ماذا يحدث ؟ .. أع ع ع ! .. ماذا تريد ؟ »

قلت وأنا أخفض رأسها لتفرغ معدتها على العشب :

— « أريد هذا !! »

— « أوع ع ع ع ع ! »

لا يبدو أن شيئاً بقي في معدتها .. ويبدو لي كذلك أن الامتصاص لم يبدأ بعد . هرعت إلى داخل الدار حيث للمطبخ الواسع الخاوي من الخدم الآن .. رحت أفتش هنا وهناك إلى أن وجدت الشاي . تصرفت بكثير من الخرق وأسقطت مئة شيء في بحثي . مطابخ هؤلاء القوم معقدة فعلاً . هناك لقمة خبز كذلك وضعتها على الموقد لأحرقها ، ثم أعدت كوباً من الشاي الأسود الذي لا تتحمله معدة أقوى فلاح منوفي من عشاق الشاي الثقيل ، وهشمت اللقمة لأحبلها مسحوقاً سابحاً في الشاي ..

عدت للمسيدة الناعسة فلرغمتها إرغاماً على شرب هذا الخليط

الكريه ..

— « صه .. لو رفضت الشرب لطلبت الإسعاف حالا !...
فكرى فى الضوضاء والأسئلة ! »

طبعا تلعب اللقمة المحروقة دور الفحم المنشط الذى يمتص
الكيمويات ، والشاي الثقيل يحوى حمض التانيك الذى يرسب
السموم .. ترياق علم مرتجل تعلمته من أحد كتب الإسعافات
الأولية ... وبالطبع لن تتحملة معها لذا ستفرغه من جديد على
العشب ، لكننى متأكد من أن العقار اللعين لم يبق بالداخل .

يبدو أن بعض الشاي قد مر لديها على كل حال ، فهي تفيق
بما لا يقبل الشك ..

فى النهاية استطاعت أن تتمالك وأن تتكلم بشكل واضح ..
ممت بدها لدورق الماء أمامها وملأت كفها بالماء ورشّت بعضه
على وجهها ..

قلت لها وأنا ألهث بعد كل هذا الركض :

— « سوف أمل أن ما حدث كان نتيجة جهلك بتفاعلات
العقاقير ... أما لو لم يكن كذلك فعلى أن أسالك عن السبب ... »

نظرت لى فى عدم فهمي فقلت :

— « لماذا فعلت ذلك ؟ »

مدت يدها التحيلة ووضعتها على يدي مطمئنة ، ثم قالت بحزم
برغم إرهاقها :

— « (علاء) .. أنا بخير .. أرجو أن تعود لغرفة نومك
وتنام ... »

ثم رفعت عينيها الجميلتين الشفافيتين نحوى وهمست :

— « (برنات) لن تعرف بهذا .. »

— « عرفت أنك مستطلين هذا .. »

— « إنني هيا قبل أن تفتقدك »

— « وأنت ؟ .. لن تجربى المزيد من هذا الهراء ؟ »

— « اطمئن .. فقط عد قبل أن تصحو وتخرج للحديقة بحثاً
عك »

هكذا نهضت وابتعدت عائداً لغرفة النوم ..

أعرف أنها لن تفعل شيئاً آخر .. لكن السؤال هو : هل فعلت
ذلك متعمدة ؟ .. لو فعلته متعمدة فهي كارثة ، ولو فعلته عن
جهل فهي كارثة ..

يبدو لى أن (برنات) صديقة .. هذه المرأة فى حال نفسية
تدنو كثيراً من الحضيض ..

4 - مفاجأة سارة لى ..

بالطبع صحت في ساعة متأخرة ..

راسى يدى كما كنا نهز نواة العاتجو لنشعر باللب بداخلها .
وقد جاءت (برنات) مشرقة كعهدا ، فقد بدأت متاعب أول
النهار الملازمة للحمل تزول .. لم تبرز بطنها بعد لكنها بالتأكيد
ستبدو محببة المنظر جداً ، كطفلة ابتلعت زيتونة !

قالت لى وهى تريح الستائر ليتسرب نور الشمس :

— « يبدو لى كأنك كنت تحارب طيلة الليل .. »

قلت فى سخرية :

— « تقريبا »

كنت ألقأ إحدى حالات التسمم لكنى بالطبع لن أقول هذا ..
سوف تطرينى كثيراً لو عرفت أثنى ألقنت أمها من الموت ..
للرجل الذى ينفذ حملته من الغيبوبة إيمان جدير بالإعجاب .

— « أعتقد أنك تفضل أن تتناول الإفطار فى قاعة الطعام

لا الفراش .. إنه جاهز »

فى توجس سألتها :

— « أبوك تناول الإفطار طبعاً .. »

قالت ضاحكة :

— « ما زال نائمًا .. إنه ينام كثيرًا هذه الأيام .. »

هكذا سارعت إلى النهوض وهرعت إلى الحمام . لا أريد أن ألقاه على الأكل في هذه الساعة المبكرة من اليوم .. السيد (كرستيان جوتز) من الأشخاص الذين يفضل المرء لقاءهم ربع ساعة في المساء لا أكثر .. هو لم يفعل لي شيئاً لكنه سمح .. نظراته سمجة .. وجوده سمح .

لكن ليس كل ما يمتنى للمرء يدركه ..

كنت جالماً في الحديقة .. في الشرفة إذا شئت الدقة ، وألمسى مائدة عامرة بالكورن فليكس والبيض المقلي والمربي واللحوم المريبة واللبن والقهوة والأزهار وعصير البرتقال .. عصير البرتقال !! .. هذا ما أتوق إليه الآن ..

قالت برنانت وهي تنظر ليدي التي تحمل آثار عض السيدة :

— « ماذا أصاب أهلك ؟ »

تأ ! .. إن فكاهها شديد كالعادة .. قلت شيئاً عن الاضطراب النفسي الذي وجعني أعض ألامنى ووصلت التهام الطعام ..

فى البدء ظهرت الأم .. بدت لى بحالة طيبة ، وحيثى ..

كالت طبيعىة جداً ولم تلق حتى نظرة من طراز (سرنا
المشترك) إياه ، حتى خيل لى إتنى كنت أحلم بما حدث أمس ...

بعد قليل ظهر الرجل ..

كان يلبس روبا قصيراً على اللحم ، ليظهر صدره المشعر
الأشيب المقرهل ، مع سلسلة ذهبية عملاقة ..

قلت لنفسى إن هذا الرجل متصلب ومعجب بنفسه فعلاً ..
أعقت هذا الطراز وأقارنه يوماً بأهى المنهك ذى الجورب
للمنقوب والبول أوفر الوحيد .. كلما قرر أن يبتاع واحداً جديداً
تذكر أن لولده أحوج منه ..

حيثما الترى الكندى وهو يحك رأسه .. ثم تشاب وجلس ..

راح يملأ طبقه بشرائح اللحم والبيض .. ثم راح يلتهم الطعام
فى جشع . نظرت للزوجة فرأيتها تراقبه فى شىء من الفضول ..
شهيته ممتازة فعلاً ، ومن الواضح أنه لا يعرف أن زوجته كانت
تموت أمس .. تتحر أو تفقد حياتها فى حادث كيميائى ..

سألتى وهو يملأ فمه بالطعام ويكور ألفه بطريقة (التشنكية) :

« هل زرت متحف الفن الملكى بعد ؟ »

نظرت لبرنانت متسائلاً .. سوف تكون فضيحة لو كنت قد
زرتة ونسيت ، لكنها قالت على الفور :

— « لا .. لم يره بعد »

— « إذن فما زال أمله الكثير لبراه .. »

ثم ملأ طبقه من جديد ، وتظر لساعته معلناً أنه سيذهب
لزيرة إحدى شركاته .. قال لى وهو يتأهب للنهوض :

— « ألا تفكر فى أن تقيم فى كندا ؟ .. يمكن أن أسهل لك
الأمور .. سوف تتعلم الكثير عن البيزنس وسوف تجيده »

بالفعل هذه البلاد جميلة جداً والإغراء شديد . لكن حيايتى قد
اتخذت شكلاً لا يمكن تغييره ما لم أغير أنا كذلك .. وحدة
(مسافرى) هى حيايتى .. المرضى .. المشكل .. (بارتلييه)
(باركر) .. المختبر .. الضاهر .. جو الكامبيرون .. السود ..
ببساطة أنا لا أرى نفسى فى أى ضوء آخر ..

ثم إبنى لست راغباً فى لعب دور الابن مع هذا الرجل ..

قلت فى تهذيب :

— « سوف أفكر .. »

لما اتصرف التفتت لى برنانت ضاحكة وقالت :

— « أجمل شيء في العالم هو أنني أعرف جيدًا قرارك ..
سوف تبقى في (مسافري) إلى أن نموت بالإيبولا أو الملاريا
أو تلتهمنا الأسود .. هذا رائع .. أليس كذلك ؟ »

— « بلى .. لا يوجد ما هو أروع .. »

بناء على نصيحة الأب ذهبنا إلى متحف الفن الملكي ..

بناء غاية في الفخامة والحداثة ، ينكر نوعًا بماسة عملاقة
نائمة على جنبها .. إن المهندسين الكنديين في غاية البراعة
فعلًا . هناك 40 معرضًا بالضبط .. وهناك أربعة أعمدة
(طوطم) عملاقة في المركز تذكر بقبائل (لوجيبوا) على
الحدود المشتركة مع الولايات المتحدة . أما المعروضات فهي
خليط من الآثار التاريخية والتاريخ الطبيعي والأعمال الفنية .
هناك هيكل ديناصور عملاقة في متحف التاريخ الطبيعي .. كل
شيء يدور الرأس مع شعور ممض بأنك لن ترى كل شيء قبل
أن تمضي هنا لسبوعًا .

قلت (برنات) وقد لاحظت ارتباكى :

— « يمكن أن نلتى هنا مرارًا فلا تقلق »

ثم نظرت للساعة .. الثقبية عشرة ظهرًا .. فقالت في خفة :

— « موعد الغداء .. سوف أجلس لنا بعض الشطائر .. »

— « أنت تعرفين .. »

— « نعم .. نعم .. لا تأكل سوى السمك ككباب البحر ..
سوف أحضر لك شطيرة سمك مع مياه غليظة .. »

كنا نقف في حديقة واسعة مفتوحة بلا سقف تفصل بين
جزئين من البناية ، وقد تنشرت هنا وهناك أكشاك أنيقة للشطائر
والقهوة مع بعض التذكارات ، وهكذا ناولتني حقيبتها ثم هرعت
لتبتاع لنا الغداء . لا أريد أن أكل فقد ظفرت بإفطار ممتاز منذ
قليل ، ولا أبتلع أبدا عادة تناول الغداء في الثانية عشرة ظهرا
هذه ، لكن أريدها أن تأكل ولا تنتظرني ..

مشيت نحو حوض أزهار رائع الجمال ، وقررت أن التقط له
صورة أو صورتين ..

تراجعت للخلف بضع خطوات ، واستدرت لألقى نظرة .. هنا
وقعت عيناي على ظهر مألوف بشكل غير مريح ..

نعم .. حمای العزيز هنا وظهره لي يقف أمام أحد الأكشاك
ويلتهم شطيرة عملاقة من الهامبورجر ، المشكلة هي أنه ليس
وحده بل هو يطوق بذراعه اليسرى تلك الشقراء .. شقراء
مائعة جدًا واضح تمامًا أنها ليست رجل أعمال زميلاً له ..

كان يلتهم الطعام ثم يميل ليهمس في أفتها ويضحك .. مع (تشنيكة) من وقت لآخر .. وهى تنفجر فى الضحك بدورها ملقبة رأسها للخلف ، ولدرجة أن تفلد تولزنها للحظات فتخطو للخلف خطوة .. هؤلاء الغربيون متحررون جداً ويمارسون حياة تختلف عنا فى كل شىء ، والرجل يقبل أن يلثم صاحبه زوجته على خدها باعتبارها قبلة بريئة ، لكن هذا المشهد يفوق تحملهم هم أيضاً ، ويعرفون متى يكون الأمر غير بريء بمقاييسهم .. هذا المشهد غير بريء طبقاً بأية مقاييس أرضية .

يا لك من !!!

هذا هو موعد العمل إذن .. ولهذا كنت متعجلاً .. لكنك غبي كذلك .. أنت اقترحت علينا أن نزور هذا المتحف ، فلماذا اخترته هو بالذات ؟

حمائى رجل لعوب إذن ، وليس سهلاً ... لكنه لا يخلو من غباء .. هو الذى اقترح علينا زيارة هذا المتحف فلماذا اختاره بالذات كى يلعب دور دون جوان ؟

جاءت برنات حامله الشطائر وهى تلهث ، فناولتنى الكيس الخاص بى مع كوب المياه الغازية ، وهى تقول فى مزح :

— « هلم يا صغيرى .. فلتجعل ماما قخوراً بك »

كان ظهرها للمشهد .. لذا جنبتها من ذراعها وقلت :

— « سلمت المتحف .. تعالى نقصد مكاناً آخر . »

كنت أشعر بلذة خبيثة كالتي نشعرها عندما نعرف أن الآخرين
أوغاد وأنا راعون . أنا الآن أعرف عنه الكثير ، والأجمل أنني
لم أفش سره أو التفت له صورة .. أنا أكبر من هذه الصغائر ..

ابتعدنا عن المشهد كثيراً ، فقلت لى (برنات) وهى تتلبط
ذراعى وتقضم من شطيرتها :

— « أنا أعرف علاقتك المتوترة مع لى ، لكن صلتى .. هو
بنر عميقة ويمكنك أن تتعلم منه الكثير »

قلت لى سخرية خفية :

— « إن أباك ليس تالفها .. إنه أستاذ ! .. بالفعل يمكننا جميعاً
أن نتعلم منه . هناك تعبير مصرى يقول عن أمثاله : قلدر على
أن يأخذنا للنهر ويرجع بنا ظمانين .. هل تفهمين هذا التعبير ؟ »

— « لا .. »

— « إذن أنت سعيدة الحظ »

5 - جنيف ..

كان قطبعاى لدى زيارة شركة الأوراق المالية الخاصة
بحماى متوقفا ..

كل شيء ضخم .. كل شيء أثيق .. كل شيء نظيف ومتسع ..
الصورة العصرية لمملكة النمل حيث الكل يصل بلا توقف . وقد
شعرت بأننى موشك على فقد الوعي .. هل يتصور حقا أننى
أريد أن أشاركه هذا كله أو أرثه عنه ؟ .. مستحيل .. هذا
الوحش الاقتصادى الضخم آخر حصان أتمنى أن أتعلم كيفية
الركوبه ..

البنية تطل على خط ألقى تورنتو ولها واجهات زجاجية
عملاقة ، تصلح جدا لإقحام طائرة من طائرات 11 سبتمبر .
كنت هناك غرفة مكنتارية بها مجموعة غير عالية من
الحنانوات ..

هل نحن فى ستوديو تصوير سينمائى أو وكالة لتصوير
الموديلات ؟ .. هذا تفكير غير عملى بالمرّة .. لا يمكن أن نحصل
على عمل عندما تعمل لديك مارلين مونرو وبريجيت باردو وجينا

لولو بريجيدا .. إتهن هنا لأكهن جميلات وليس لأكهن يتمتعن
بالكفاءة .. هذا واضح ..

من جديد علامة استفهام على حماى العزيز .. هذا رجل كنت
أسى متصفه بئنه (شايب وعالوب) ..

جلست فى الاستراحة الخارجية ، ورحت ألقبه من وراء
الزجاج وهو يجرى عشرات الاتصالات ، ثم يدخل عليه شاب
متأنق يحمل أوراقا ليدرسها ويطلق بعض الشتائم التى
لا أسمعها .. ثم يجرى المزيد من المكالمات .. آلات الطاكس
لا تكف عن الأزيز وبصق الأوراق .. الشاشات تتلقى ..

هنا أنت منى تلك السكرتيرة لتحيلة ذات الشعر القصير
الأملس والعيونات غير ذات الإطار ..

قلت لى بلهجة رفيقة :

— « هل تشرب شيئا ؟ »

اعتذرت فى لطف مماثل ، فقلت تصالنى :

— « أنت زوج ابنة المسبو (كرمستان) .. ليس كذلك ؟ »

هزئت رأسى لن بلى .. فقلت تصالنى :

— « مصرى .. أليس كذلك ؟ »

— « بلى .. »

ابتلعت ريقها ثم أصلحت من وضع عوينتها الرقيقة وقالت :

— « يقولون إنك مؤهل لتراث هذا كله »

كنت أقول لها إن هذا ليس من شأنها ، لكن لا مزاج لى اليوم
كى أكون سمجًا .. بعض أسئلة لن تضر أحدًا وأنا لا مطمع لى
فى هذا المكان بتتأ إذا لا تهمنى أية انطباعات أتركها ..

قلت لها :

— « لا أظن .. ولا أريد .. »

بدا عليها الارتياح .. ثم مدت يدها تصافحنى بأطراف أصابعها
وقالت :

— « (جنيفيف) ... تبدو لى موحيا بالثقة وهذا يغرينى بأن
أخذ رأيك فى مشكلة صغيرة .. »

— « تفضلى .. »

— « البطالة فى كل مكان والعسل صار نادرًا وليس بوسع
الفتاة أن تتال حقوقها كاملة .. العسل هنا مجز على الأقل .. أنت

تفهم هذا .. أليس كذلك ؟ .. ما أريد قوله هو أن المصيو
(كرسيتيان) يتجاوز أحياناً .. أعني أنك تعرف ما أعنيه ..
أحياناً يعتبر المدير مكرتيراته نوعاً من الحريم . يمكنكى يوماً
أن أقدم شكوى ضده لكنى سأفقد عملى ببساطة .. من الصعب
أن تحتفظ الفتاة فى مكان كهذا بعملها واحترامها لذاتها .. هذه
مشكلة . لهذا أشعر أحياناً بأننى بهنوان فى المسيرك يمشى على
الجل .. أية حركة خاطئة سوف تنهى أمره .. أنت تفهم ما أريد
قوله .. »

نظرت لها غير مصدق ما تقول .. عدت أسألها :

— « لماذا تخبريننى بذلك أنا بالذات ؟ »

تحصمت إطر عويناتها بيد راجفة كعانتها فى الكلام كما
يبدو ، وقالت :

— « أنت زوج ابنته .. ربما تملك أجوبة أو مقترحات أو
حلولاً .. »

ضحكت فى عصبية وقلت لها وأنا أضع سلفاً على ساق :

— « هل تعتقدين أننى سأطلب من حماى ألا يكون وقحاً ؟ »

قلت فى خبث :

— « هناك ألف طريقة لقول الشيء ذاته دون أن تصيب مشكلة .. »

— « وهل كان الأمر كذلك يوماً ؟ »

— « مؤخرًا بدا لي كأنه يمر بلزمة منتصف العمر .. يبدو أنه يخشى أنه لن تكون هناك فرص أخرى »

ضحكت في سري .. في الستين ويمر بلزمة منتصف العمر ..!.. حسبتها أزمة نهاية العمر . يبدو لي أن متوسط عمر المواطن الكندي 120 عامًا إذن . صحة هؤلاء القوم ممتازة فعلاً ، فلو كان الرجل مصريًا في هذه السن لرأيتَه جالماً في المقهى يلعب الطاولة ، أو رأيتَه جالماً في المسجد جوار عمود يقرأ القرآن إلى أن يصاب بنوبة قلبية ويموت ..

قلت لها :

— « سوف أحاول حل هذه المشكلة .. لا أعرف كيف فلتنا لم أصل لقرار بعد ، لكن أعذك أن أرى .. نعم . لا تخشى شيئاً فلن أفكر أسماء .. لا تتوقعي أنني سأدخل مكتبه لأقول له إن (جنيفيف) تتهمك بالتحرش .. »

عادت تقول بلهجة شبه امرأة :

— « لا تفتح الموضوع الآن أو اليوم وإلا خمن على الفور من
قال لك هذا .. إنه يراقبنا الآن من وراء الزجاج .. »

— « اطمئنى .. أنا لست غيباً .. »

قلت فى حرارة :

— « عرفت على الفور من عينيك أنك صادق وأنت لست خفياً
أو غيباً .. لهذا تكلمت .. »

هذه هى مشكلتى طيلة حياتى . أنا أبهى صديقاً جداً .. يقولون
إن لى عينين لا تكتمان أبداً ولا أعرف معنى هذا ، لكنى بالفعل
لا أكنب إلا نادراً جداً ..

مثل الآن على سبيل المثال ..

لقد تفتح الباب وخرج حماد والهاتف على أنه وسألنى وهو
ينظر لها فى شك :

— « ماذا هناك يا (جنيفيف) ؟ »

قلت على الفور :

— « إنها مهمة بمصر جداً .. أسئلة لا تنتهى .. »

قال وهو يجنبني من فراعى لتدخل مكتبه :

— « لاحظ ان الغربيين عندما يتكلمون عن مصر فهم يتكلمون عن الفراعنة لا أطفالهم .. هنا حالة عشق مزمنة لكل ما هو مصرى لكن هذا العشق لا يشملك أنت . »

— « أعرف هذا .. »

رفيق للغاية ومجامل .. لكنه كذلك عجوز لعوب متصاب ويتعشرش بالموظفات . إن الرجل لا يخيب توقعاتى أبداً ..

يمكننى الآن ان أعرف سر تعلية أم (برنادت) وتلك المغامرة الليلية التى كانت تموت فيها . زوجها اللطيف جعل حياتها جحيماً بلا شك وهى لم تعد تتحمل هذا كله ..

جلس خلف المكتب وضغط على زر ليطلب إحدى السكرتيرات الشبيهات بالصوريات كالعادة . دخلت إحداهن فنظر لى سائلاً :

— « سوف أرسل طلباً بيتراً .. أنا جائع .. هل ترغب لى أن تاكل ؟ »

تحسست معتنى وهدت لى فكرة لا بأس بها أبداً .. للرجل يتوق الجمال والطعام الجيد .. أنا لمنحه هذه الشهادة عن طوب خاطر .

خرجت الفتاة فتعطى وجلس على أريكة مريحة هناك ، وشمر
عن كفيه وقال :

— « تعلم كل التفاصيل هنا .. لو أردت أن ترث هذه المملكة
فعلبك أن تعلم كل شيء .. ثنى أنها مهمة عصيرة ، وإبنى بحاجة
إلى نسختين أو ثلاث نسخ منى لأقوم بما يجب أن أقوم به .. إن
الأمر يشبه ذلك الثور الأسود الذى ركبته (جلجاميش) .. يجب
أن تكون بطلاً أسطورياً لتتحكم فيه. »

قلت فى إصرار :

— « سيدى .. للمرة الألف أكرر : لم أرد من عالمك سوى
شيء واحد هو (برنات) ، وهى الآن زوجتى .. هكذا أقول
بوضوح إبنى لا أريد شيئاً منك على الإطلاق .. يمكنك أن تمنح
كل ثروتك لابنتك أو تتبرع بها للجمعيات الخيرية .. أنا لا أريد
مليماً .. لا توجد بطولة ولا فروسية فى هذا ، لكننا نختلف فيما
يرى لنا ويمسحنا .. هناك أشخاص لا يبالون بمباراة كرة قدم
نهائية بين فريق البرازيل والأرجنتين ، وهناك من لم يروا فيلم
(هارى پوتر) قط ، وهناك من لا يبالون بالملايين ولا يعرفون
الفارق بينها وبين المليارات . إن فكرتى عن المال هى أن يكون
عندى قدر كاف منه يسمح بمسكن صحى وطعام جيد وملابس

معتول ، مع قدر من المنخرات لمواجهة المرض والطولوى ..
فقط .. كل ما يزيد على ذلك هو خارج نطاق تطلعاتى .

كور لطفه بطريقة (التشنيكة) وقال فى مخربة :

« أعراض الشباب المفلس .. العنب فوق الشجرة العالية له
مذاق حامض .. كلهم يقول هذا ثم يصاب بالسعار إذا وجد
طريقة لجمع المال »

بصرامة بدأت تضيق .. ماذا يريد بالضبط ؟ .. كان يخشى أن
لحاول الاستيلاء على ثروته ، وأنا أؤكد له إتنى غير مبال ، فإذا
به يقتضى إتنى أحق ..

لا أحب من يحاولون إقناعى إتنى أحق . دعونى أعرف هذا
بنفسى ..

قال لى وهو يتشعب كقراص النهر :

« أنا أرغب فى بعض النوم .. سنأكل البيتزا ثم ننام قليلاً
ونتركك تستكشف الشركة بنفسك . فى المساء سنخرج معا ..
أريد أن أفهمك أكثر »

6 - الكثير من المرح ..

لم تخرج (برنات) معنا .. قال لها أبوها إنها ستكون نزهة ذات طابع رجولى ، وإته يريد أن ينفرد بى ..

قلت لنفسى إن الرجل سيفسد إجارتى إذا ظل محتفظاً بهذه المشاعر الودية . هل يريد أن يشعر بأن له ابناً ؟ .. وكيف أتخلص منه وكيف أعود للنزهة مع برنات ؟

لم أستطع التملص وها نحن ذان جالسان فى ناد اسمه (666) ، وهو اسم شيطانى جداً كما ترى . الإضاءة بالداخل لعينة تذكرك بالشياطين فعلاً ، مع مجموعة من الزبائن يمكن أن تراهم فى الكوابيس . هذا مكان مجنون فعلاً صاحب فعلاً لا يناسب هذا الرجل ...

كان يشرب مشروباً لعينا اسمه (الروسى) ، يبدو أنه من أسرة الفودكا . ويدخن السيجار ويثرثر بلا انقطاع . يحكى لى عن رحلة كفاحه وعن الوحوش التى انتصر عليها ليصل إلى القمة ..

هنا ظهرت فتاتان من الطراز إياه ، ومن الواضح أنهما تعرفانه لأن الكلام بدأ دون تعارف ..

واحدة سألته عن تلك الشاب الأسمر الوسيم . نعم .. أنا بالتأكد فلا يوجد شاب آخر يقف معنا . قال لها ضاحكاً :

— « ملجى .. هذا هو زوج ابنتى ! .. ابنتى لعمو عظيم متفتح .. »

وطلب لهما بعض الشراب ..

كنت أشعر بأتنى مريض . لا أطيق أن أرى الخمر أو أشم رائحتها ، فهي كما قلت تنكرنى بلادوية السعال وأشعر كلما رأيت من يشربها بأتنى مريض .. ثم إن هذا الجو مسمم فعلاً . الحقيقة المرعبة هي أن حماى سوف يفسد أخلاقى .. لست ملاكاً طاهر القليل ولا أزعج أى شيء ، لكنى لا أريد أن أكون هنا .. هذا من حقى ..

لكن العجوز اللوغد قال وهو يضع نراعه حول كتف أجمل اللفتاتين :

— « جنيلار تريدنى فى أمر مهم .. يمكنك قضاء بعض الوقت مع ملجى إلى أن أعود .. »

ثم غمز لها بعينه وقال :

— « اعتنى به .. إنه فتى طيب وساذج جداً .. »

هنا رأيت ذلك الشاب ضخم الجثة يقترب من خلفهما . كنت له نراغان عضليتان عاريتان مليئتان بالوشم ، ولحية دقيقة طويلة تذكرك بلحية التيس وذيل حصان لا بأس به . عرفت ما سيحدث على الفور عندما وضع يده الثقيلة على كتف (جنيفر) وقال بصوت غليظ :

— « لن تذهبي لأي مكان .. »

استدار له حماي وقال في تحد :

— « هل هناك أسباب قوية لهذا ؟ »

قال الفتى في غلظة جديرة بمنظره :

— « ابتعد أنت يا جدي .. لا أريد قتلى هذه الليلة .. »

لا يوجد ما يستدعي الحماسة أو الانفعال .. من الخير ترك هذا الفتى وشأنه . هكذا يفعل للعقلاء ، لكن من قال إن حماي عاقل ؟

لقد احمر وجهه كالطمطم واحتقنت عروقه وصاح :

— « جديك ؟ .. ستبكي كالأطفال بعد دقيقة واحدة ليها الوقح ! »

وكور قبضته وسندها في وجه الفتى ، بالطبع ليهد الفتى يده ويمسك بالقبضة ويضغط عليها وهو يضحك في قسوة . ثم إنه دفع العجوز بقوة فطار ليضرب الكاونتر الذى كنا نستخدم إليه ..

علاء يا صديقى .. لم يعد من مفر .. سوف تلعب مرغماً دور بلطجى الحانات ، والكارثة أنها حرب لا ناقة لك فيها ولا جمل . وثبت فوق ظهر الفتى وتمسكت بعنقه وأنا أحيط خصره بساقي .. ثم أنشبت أسناني في عنقه كأننى قط مسعور غاضب . بلغ قمة الهياج لكن التخلص منى كان مستحيلاً .. أنا جلجاميش الذى ركب الثور الأسود .. راح يضرب ظهره بالكاونتر يميناً ويساراً بينما أنا أواصل العض ، لدرجة أننى لو طرت من على ظهره لانتزعت قطعة من اللحم بأسناني . هل تعرف طريقة أخرى لقتال هذا الثور ؟ .. أية محاولة تضعك في مجال قبضته هي نهايتك ..

في النهاية تكثر الناس ونجحوا في تخليصنا . كان غاضباً يطلق السباب وحاول أن يصل لى عدة مرات ، لكن عشرة من الزبائن وقفوا بيننا وأبعدوه وقدم له أحدهم كأساً ليهدأ . إن (تورنتو) تتمتع بمعدل جرائم منخفض جداً لهذا لا يبدو أن هذه المشاهد تقع كثيراً ...

يبدو أن عويناتى سقطت فى لحظة ما وبمعجزة ما لم تنهشم تحت الأقدام . ناولها لى رجل باسم من الطراز الأمهى لياه .. شعر أبيض وبشرة حمراء وحققان بلا لون .. هزرت رأسى شاكراً ووضعتها على أنفى فعلا الإرسال لتتفريونى واضحا جيدا . جلست لاهثا هنا وجدت بدا على معصمى .. رفعت رأسى فوجدت حماى اللطيف ببتسم مشجعا وقد رسم (التشنيكة) لياها :

— « إن طريقك فى القتال ممتازة .. صحيح أنها تنكرنى بالقطط لكنها فعالة .. »

لم أتكلم .. إذا كنت قد اخترت مصاحبة أحقى فعلى أن أرفع الثمن .. عجوز متهور وشاب عاقل .. ألا تجد شيئا غريبا هنا ؟ قال لى وهو يصب كأسا لنفسه :

— « لو إتنى طلبت أن يلحق بنا السائق أو أى واحد من الموظفين لصنعوا من هذا الفتى هامبورجر ، لكنك أجبت التصرف .. والآن .. »

صحت فى زعر :

— « الآن ؟ .. لتوصل لك أن نرحل حالا !! »

قلت في ثقة باسمه :

— « قلت لك بنتي لن أتأخر .. هيا يا جنيفر

ومرغان ما كان يتأبط ذراع الفتاة ويرحل .. يمشي في خط مستقيم ثابت كأنه يجري اختبار السكر أمام شرطى . أنا بطة ميتة .. لابد أن أبقى هنا إلى أن يعود لأننى لن أستطيع العودة للدار وحدى وهو من يملك الاتصال بصائق السيارة ليأتى لنا ..

لما الآن مع (ملجى) .. شقراء أخرى من تلك الطراز الذى لا ينتجون سواء هنا . نفس الملامح والقامة والصوت والتعبيرات . لكن يبدو أنها تروق للمزاج الغربى جدًا ...

لم أتكلم لأننى كنت منحرف المزاج ، ولم أشعر بأننى مطالب بتسليةها لكنها شعرت بذلك .. فقلت لى :

— « أنت شجاع .. لا أحد يواجه (مارك) بلا تفكير بهذه الطريقة .. »

قلت لها ولما أفرغ فى كوبى بعض المياه الغازية :

— « لم أفعل شيئاً .. تمسكت به كالخفاش مصاص الدماء لا أكثر .. لم يبن أحد نصيباً تذكاريًا لخفاش عنى قدر علمى .. »

هنا رأيته فلامنا .. (مايك) نفسه بلا زيادة ولا نقصان ..
 للثور الأسود عائد لتحدى جلعاميش .. كان يشق الطريق بين
 الناس نحوي ، وأدركت أن هذه المرة نهايتي فلن أتمكن من
 الوثب على كتفيه ثانية . كان انتصاري جميلاً لكنه لم يطل ..
 المهم ألا يبدو على الذعر وأنا ألتقي علقتي الصاخنة ..

دنا مني ونزل الحصان يتأرجح على كتفيه ، فلما صرت في
 متناول قبضته توقف .. فجأة مد يده بصافحتي بشيء من
 العنف :

— « آسف .. يبدو أنني شربت كثيراً .. لا تنب لك فيما
 حدث .. »

صافحته غير مصدق كل هذا التحضر في بلطجي ثمل . قلل لي
 وهو يستند إلى الكاونتر :

— « إنه ذلك العجوز القذر يخرجني عن طوري .. هل هو
 قريبك ؟ »

— « صديق قديم هو .. »

— « إنه يحسب أن بوسعه شراء كل فتاة هنا بماله .. يأتي
 في كل ليلة ولا يترك فتاة دون أن يحاول اجتذابها .. في الواقع

أفضل أن أتركه وشأنه ، فلم يبق له الكثير في هذا العالم . لكنى لم أطق أن يتحرش بجنيفر . إنها فتاتي وأنت تعرف أن ... »

قالت (ماجي) في سخرية :

— « على كل حال هو فعل ما أراد .. لقد أخذها فعلاً .. »

عض الفتى على شفتيه المصطفى في غيظ واستدار لى وقال :

— « هو فاز بالفتاة ونحن تشاجرنا .. أرجو ألا تكون هناك

ضغائن يا زميل .. »

قلت في صدق :

— « لقد نسيت الأمر تمامًا .. صدقتي .. المهم ألا تضربه

ثانية لأننى لم أتحمل المشهد .. »

— « قلت لك إننى كنت عصبياً .. »

واستدار مبتعداً ليغيب وسط الزحام والصخب والموسيقا

الشنيعة . أنا مريض .. رائحة العرق والخمر والموسيقا

الصاخبة والضوء الذى يتبدل كل ثانية .. إنها الطريقة المثلى كي

تقلب معنك أو تصاب بالصرع . لا أكره الموسيقا الصاخبة

وأحب الكثير منها ، لكن هذا نوع خاص من الروك عنيف جداً

شروطتى جداً .. يوشك على أن يؤذى لتختر سماديتويلارم فى

خلايا ليتحول إلى نوع من الزبادى .. لا يمكن أن يظل توترتك
لداخلي كما هو بعد ليلتين في هذا المكان .

أريد أن أذهب للحمام وأفرغ معدتي .. مملكتي مقابل نص من
الليمون أمتصه في جشع .

هنا تنكرت ما قال حماي فاستكرت للفتاة في خيظ وصحت :

— « هو قال إنه عائد حالاً .. »

قلت في خيظ وقد سرتها سذاجتي :

— « معه حق بصندك .. أتت طيب شديد المذاجة فعلاً ..

سيعود طبعاً .. ربما بعد ساعة ! »

غلى الدم في عروقي .. لرجل يستقلني بوقلحة وفضافة .
لقد خرج معي ليضفي على جولته طابعاً محترماً أمام زوجته
لا أكثر ، وليس لأن مجاعر الأبوة استبليت به ، وها هو ذا يعلمني
ككائن ذي قرنين فيتركني هنا وحدي أتشاجر من أجله ، بينما
بعث هو .. بعبرة أخرى هو كان بحاجة لي الليلة كي لعب دور
(الماسوخة) إذا سمحت لي بهذا التعبير للعاسي .. هناك الفاظ
أخرى تصف ما أنا فيه لكني لا أجرو على ذكرها ..

كنت أتوقع أن يكون حماي سيئاً لكن ليس إلى هذا الحد ..

يجب أن أعامله بحزم وقسوة ..

7 - عذر أقبح من ذنب ..

— « هل قضيتما وقتاً طيباً ؟ »

كنت غارقاً تحت الأغطرية أشعر بأننى موشك على الموت ..
أريد أن يتركونى هنا شهرين ، لو يحضروا لى محامياً يكتب
وصيتى . قلت لبرنات كاذباً طبعاً إن الأمسية كنت رائعة ..
لأبوها قد يصير ظريفاً أحياناً ..

— « فيما عدا هذا نلجأ لجلسة الهامدة فى السيرة أثناء العودة .. »

لعل هذا هو الجزء الوحيد الصالح فى كلامى .

قلت لى فى مرج :

— « سوف تستعد سريعاً للخروج ، لأننى رتبت لك لقاء مع
زملاء دراستى .. مجموعة أطباء طريقة جداً .. »

قلت لها متوسلاً :

— « ألا يمكن تركى فى الفراش هذا اليوم ؟ »

— « الإجابة هى نعم بـمسلطة .. لا يمكن الاعتذار لكل هؤلاء .. »

سنة أطباء في عمرنا .. مجموعة ظريفة من الناس فعلاً ،
وهم يحبون (برنات) فعلاً . ثلاث نساء وثلاثة رجال .. كنا
جالسين في مقهى جميل جوار نافذة تطل على حوض أرهار رقع ..
المكان كله قريب جداً من برج CN ...

تكريات للشباب والدراسة .. إذن هذا هو فارسك الشرقي
الوسيم ؟ .. يبدو قوياً .. لا شك أنه حار الدماء .. احترسى وإلا
قطع رأسك لأننا نملزحك ..

تقبلت هذه الدعايات في سعة صدر .. دعهم يعتقدوا ذلك ،
فهذا على الأقل سيجطهم لا يتسطلون معها بالطريقة الغربية
التي أمقتها .. تصافح الرجل وتقبل زوجته على خدها ! ..
يا سلام !

قال طبيب ملتج أحمر الشعر اسمه (جيمون) :

« كنا كلنا نحلم بالشراء .. لكن برنات الثرية أصلاً فارت
ظهرها لهذا كله وراحت تتحدث عن (سافارى) .. لا أعرف ما
هى (سافارى) هذه ، فالسافارى التي أعرفها هى رحلات
الصيادين في الأدغال .. ليل أفريقي وأسود تثب من الأحراش
وفيلة غاضبة .. »

قلت برنعت :

« عرفنا هذا كله ، لكنى كنت رأيت أمراضا ستموتون جميعا دون أن تروها .. »

قال طبيب آخر لمهق له شعر أبيض وعينان شفافتان واسعتان جدا ويضع عوينات بلا إطار ، وهو ينظر لى :

« على كل حال قد رأيناك وأنت تقتل .. كنت رائعا ! »
هنا تصلبت .. اعتقد أننى بدأت أفهم ..

نظر الجميع لى فى عدم فهم ، فقال الأحق ضاحكا :

« أمس فى (666) .. تلك المشاجرة مع البلطجى الذى كان يريد الاحتفاظ بفتته .. أنا كنت هناك مع صديقى .. لابد أنك نسيتنى .. »

بالطبع ما كنت لألاحظه وسط كل هذا الصخب ، وبالتأكيد لم يكن يرتدى بذلة وربطة عنق كما أراه الآن ، بل كان بالتأكيد يلبس مثل (البلك) ..

قلت الحجة المعروفة :

« بالتأكيد لم لكن أنا .. »

— « لا يمكن لأحد أن يخطئ هذه الملامح الشرقية .. دعنى
أؤكد لك .. أنا التقطت عوينتك التى سقطت على الأرض
وأعدتها لك ، ولقد وقفت طويلاً مع تلك الشفراء ذات الثوب
الأسود ، ثم جاء البلطجى من جديد فتوترت أنت لكنه صفحك ا »

نظرت لى برنات طويلاً ، ومن جديد دارت المحادثة لكنى
أدركت أنها غير مستريحة على الإطلاق .. معها كل الحق ..
زوجها اللطيف يتشاجر فى الملاهى الليلية من أجل فتاة .. خمر
فريد من نوعه وهى آخر من يطم ..

هكذا انتهى اللقاء ، وظفرت بوعد من الطبيب ذى اللحية
الحمراء أن يزورنى .. إنه جراح أعصاب تحت التمرين هنا ،
ومن الواضح أن طريقه شاق فعلاً لأن منه ليست صغيرة ..
يبدو أنهم يسمحون لك بأن تكون جراح مخ ولت فى سن
الثلاثين ..

فى طريق العودة ظلت برنات صامتة ، وعرفت أن هناك
عاصفة فى الأفق .. لون الجو ينذر بكارثة .. أتحدث عن مزاجها
طبعاً .. هناك بروق قادمة ..

بعد قليل قالت لى وهى تتابع الطريق أثناء القيادة :

— « هل تنوى قول شيء ؟ »

قلت في كياسة :

— « لا تنب لى فيما حدث .. والدك يتصرف بحمالة أحيانا وكاد يورطنا فى كارثة .. »

— « وهل تتوقع منى أن أصدق هذا ؟ »

— « يجب أن تسألى أولاً عن سبب ذهلى لهذا القتادى الليلى ..
لما لذى لا أعرف شارعين من شوارع (تورنتو) .. »

— « هناك كنية فى الموضوع .. كنت أعرف ولحذا اسمه
(علاء) يحكى لى كل شىء .. الآن هناك نداء ليلى ويلطجى ومشجرة
كبرى وفناة تنهس الأسود .. كل هذا لم تنكر حرفاً عنه .. »
— « لأنها أحداث نافلة .. يمكنك سؤال أبىك .. »

قلت فى عصبية :

— « لن أسأله عن شىء .. كان يوسعك أن تتصرف فى أية
لحظة لو كان الأمر كذلك .. على فكرة (لويس) — الطبيب
الأمهق — يعرف أبى جيداً ولو رآه هناك لقتل هذا .. »

قلت فى غل :

— « لأن أبك تركنى وحدى وسط هذا الجحيم وذهب ليمرح ..
لعبت أنا دور التيس .. »

قلت فى برود :

— « التيس و (الساتير) لا يختلفان كثيراً .. »

الساتير Satyr لو لم تكن تعرف هو مخلوق أسطورى من
الأساطير الإغريقية يبدو كتيس يمشى على قنمين ، وهو
شهواتى جداً مولع بالنساء بشدة ...

كقاعدة : لا توجد فتاة فى الكون تصدق أن أباه أو أخاها
وغد .. الوغد الوحيد الممكن هو زوجها . قد يكون أبوها طاغية
أو متصلب الرأى أو ضيق الأفق لكنه ليس وغداً أبداً .. السبب
طبعاً هو أنها لا ترى سوى جانب واحد من أبيها أو أخيها .
عندما تخبرها أن أباه أو غداً تغضب أو تضحك فى سخرية ،
وتهتف :

— « أنا عاشرته طيلة حياتى .. فلو كان يحمل طابعاً سيئاً
لعرفت .. لما أتت فجدد تعلماً .. »

وهى بهذا تتلمس أنها لا ترى سوى جانب واحد من
شخصيته ، وهى بالفعل لا تعرف عنه شيئاً على الإطلاق . ذلك

من الغرور التقليدي .. ما دام هو أهي فهو ممتاز ونهيل ..
لا يمكن لمن أتعجب ملاكاً مثلي أن يكون أقل من هذا ..

قلت لها في صبر ونحن نتوقف في حديقة الفيلا / القصر
الجميلة :

— « لا يوجد عندي ما أضيقه .. صدقي أو لا تصدقي .. هذا
شئك ، لكني أكرر أن ما قلتك صحيح تماماً .. »

— « كما تشاء .. »

وترجلنا ، ولما أشتم أياها في مري ..

لما مظلوم وهذا يثير جنوني .. من الجميل أن تكون أنت
الظالم ، فهذا يجعلك شريراً لكنه على الأقل ينقذك من انفجار
المخ .. والآلهي أنها تعرفني جداً وتعرف ما يروق لي وما يثير
اشمئززي .. ما كنت لأجد أية متعة في هذا الجو المظنوم
للمريض ..

هذه هي آخر مرة ألتقي فيها بذلك الرجل ..

8 - ليلة هادئة جداً ..

هذا الصراخ لا شك فيه .. ليس كنبومنا ..

(برنات) تركل الغطاء وتضع الروب على كتفها ثم تركض
بقدمين حافيتين نحو مصدر الصراخ ، بينما أبحث عن الروب
فلا أجد .. أهرع بالمنامة .. أفتخر في قطع الأثاث .. غرفة صلحة
فعلاً لكسب اللباقة ، إذ يكفي أن تدخل الفراش مرتين يومياً
لتضمن أنك مشيت ستة كيلومترات ..

أهرع عبر الجناح لأدخل الجناح المجاور الخاص بالأهوين ..
كان هناك اثنان من العاملين ومديرة البيت ، وهناك جو علم
من الفوضى ..

مصدر الصراخ كان أم (برنات) الرقيقة الصغيرة التي تطلق
صراخاً جديراً بسيارة إسعاف .. هل توفي الرجل أخيراً ؟ ..
ممكن .. لن أحقد عليه بعد الآن .. كنت أكرهه لكني سألحته .

لكن الوجد لم يكن ميتاً .

على البساط الممرك الفاخر كان يرقد متكفناً على وجهه .
ركعت جواره وتحسست نبضه فوجدته حياً .. حياً لكن نبضه
واهن جداً وغير منتظم ..

كان في شبه غيبوبة .. أطراف باردة .. لا يقدر على تحريكها .
هل هو في صدمة ؟ .. ما السبب ؟ .. عندما نجد عجوزاً في
صدمة لا نفكر كثيراً بل نقرر أنها نوبة قلبية إلى أن يثبت العكس ..
صحت في برنات المذعورة :

— « اطلبى الإسعاف فوراً .. »

تذكر أن رقم الطوارئ الشهير 911 اتصل أول مرة في
التاريخ في كندا في الخمسينات .. هكذا هزعت (برنات)
تفصل ، بينما استمرت أسأل الأم الباكية :

— « ماذا حدث بالضبط ؟ »

قالت بين دموعها :

— « دخل الحمام ليقيء كعادته .. ثم خرج فلذا به يترنح
للحظات ثم يسقط أرضاً ... إنه »

كل هذا جميل .. القصة مفهومة — ... ماذا قلت ؟ .. هل قلت
(بقيء كعائته) ؟ .. هل هي مجنونة ؟

سألتها في غيظ :

— « بقيء كعائته ؟ .. نعم .. مفهوم .. كلنا نحب أن نقيء قليلاً
قبل النوم مثلاً كان شهاب الوجوديين يغطون في المستنقعات .. الحياة
من غير قياء صعبة فعلاً .. »

قلت في برائة كنتها لا تجد شيئاً غريباً في هذا كله :

— « إنه يأكل كثيراً جداً ويحتفظ برشاقته .. كيف ؟ .. لأنه
يتبع رجيم القياء .. يأكل ما يريد ثم يدخل الحمام ويضع إصبعه
في حلقه ويخرج ما أكله !! »

« أنتم مجانين !! »

الآن فهمت ..

طريقة الرجيم لللعنة هذه معروفة ، ونتيجتها دائماً هي الموت
نتيجة نقص البوتاسيوم . مطربة فريق الكارينتيز الرقيقة
(كارين) ذات صوت الملائكة كتبت تتبع هذا الرجيم ، والنتيجة
أن الفن فقدما مبكراً جداً ..

الرجل يعانى درجة متقدمة من نقص البوتاسيوم وهذا يفسر كل شيء ..

لما كنا فى انتظار سيارة الإسعاف ، فبتنى أنتهز الفرصة لأخبر القارئ بالفارق بين هذا الرجيم اللعين وداء (البوليميا) .
فى داء البوليميا Bulimia يأكل المريض بشراهة مرضية ، ثم يفرغ معدته عن غير إرادة منه .. يفرغها لأنه يحمل خوفاً مرضياً من السمنة ، وهكذا تتحول كل لقمة يأكلها إلى صخرة يجب التخلص منها .. الأميرة (ديتا) كانت تعانى هذا المرض بشدة ..

كنت لود أن أكمل لكنك تعرف الإسعاف الكندى .. سريع جداً ..
يصل قبل أن يحدث الحادث ..

تعال نصحب حمائى للمستشفى ، ولنر إن كان سيظل حياً بعد هذا كله . لنا لست قلقاً عليه .. الأوغاد الشهواتيون فالحشو للثراء لا يموتون بسهولة .. لو على الأقل يموتون بعد ما يفتوتنا نحن ..

كان تشخيصي لا يأمن به ..

نقص بوتاسيوم مرعب أدى لوهن العضلات واضطراب ضربات القلب .. إن قلبه واهن كذلك بحكم السن ، وهذا جعل الوضع مضاعفاً .. ويبدو أن القىء كان زائداً اليوم ...

لكن كان من الواضح أنه سينجو .. هؤلاء الأطباء بارعون فعلاً .. كل شيء يتم بكفاءة مذهلة وبسرعة البرق ، دعك من نظافة المستشفى ورقبه ، ودعك من الحقيقة المرعبة أن هذا مجتبي .. إن كندا تملك أروع نظام تأمين صحي على الإطلاق ، حتى أن الأمريكان يأتون عبر الحدود لتتلقى العلاج قبل أن يعودوا لبلدهم الذي لا يرحم المرضى الفقراء ..

نلت (برنات) على مقعد جوار الفراش ، بينما جلست أنا بالخارج في الاستراحة لأحاول مقاومة النعاس ..

بلد جميلة فعلاً ، لكن لابد من الاعتراف بأن نومي سيئ جداً منذ جئت هنا ، وأن أقاربى مجتبن بلا شك .. هذه الأسرة غير طبيعية ، وذعري بالغ من أن تكون (برنات) تحمل بعض هذه الجينات .. هناك أمراض لا تعلن عن نفسها إلا في سن متقدمة ومنها الكلية المتحوصلة والباركوبيا .. لا أعتقد أنها ستجن لكني بالفعل قلق ...

على بعد خطوات جلست أم (برنات) شبه نائمة بدورها ..
عقدت ذراعها على صدرها وأراحت رأسها للخلف .

قلت لها في لطف :

— « سيكون بخير يا سيدتى .. »

قلت مغمضة العينين :

— « شكراً يا (علاء) .. »

عرفت على الفور أنها موشكة على الكاء .. للغيوم تتجمع ..
سوف ... لقد غطت وجهها وبدأت تتشجج ، فنهضت لأربت على
كتفها . جميل أن يجد هذا الوغد من يلقى عليه ، لكنها قالت
وهي تنهه :

— « لم أعد أقدر .. إنه يتحول إلى شيطان يوماً

بعد يوم .. »

— « أعرف .. إنه وغدو ... »

نظرت لى بعنى برنات الجمالين لشغافتين فاضت على
تقريباً .. وأرابت :

« كنت لا تعرفه .. لقد قضينا حياة جميلة .. لقد تغير كثيرا ..
على أن أتحملة وأتحمل مفارقاته الصبيانية مع الفتيات ،
وحرصه على أن يبدو شائبا .. شربا في الطعام والشبهوات .. هذا
يشير الاشتغال .. باختصار هو يتحول إلى .. إلى خنزير .. »

ومن جديد انفجرت في البكاء ..

هذه المرة قررت أن أتركها تبكى ..

هذه الدموع سوف تغسلها وهي بحاجة لها بشدة . لابد أن
هذه أول مرة تطلق عليه فيها لقب (خنزير) وهي لا تصدق
لأنها قالت ذلك ، برغم أنني قلت ذلك منذ اللحظة الأولى .. دعك
من أن هذا يرجح أنها تعلمت شرب الكحول مع عقار الكلورال ..

هذا الجو ملغوم ..

هذا الجو مسمم ..

ومن جديد أتوق بشدة إلى الفرار .. العودة لوحدة سافارى
الحبيبة ..

9 - فيلم صامت ..

عاد الأب إلى البيت في اليوم التالي ..

لا أعرف إن كان لفتت بعدم جنوى هذا الرجيم ، أم هو ينوى تجربة العقاقير .. معظم العقاقير التى تستخدم لفقدان الوزن هى من طراز (أشباه منبهات الجهاز الهضمي) ، وهذا يعنى أنها ستقضى على قلبه وترفع ضغط دمه بإذن الله ..

يقضى معظم الوقت فى النوم .. فقط يصحو ليتشاجر ويأكل .. أحياناً يجلس فى الحديقة الهائلة جوار حمام الصباح ويدير مملكته مستمتعاً بمئة من أجهزة الهاتف ، وأحياناً يقف جواره هذا السكرتير أو ذلك لملء مجموعة من الأوراق .. يبدو أنه يستعمل النكور فقط فى البيت لإبعاد الشكوك . يرافق زوجته وهى تمتطى الحصان الأبيض الجميل .. إنها تحب الخيول فعلاً وتقضى وقتاً طويلاً داخل الأسطبل .. ولشد ما تبدو طريفة وهى فوق صهوة الحصان بحجمها لتفرق كلتها طفلة أدهاها أبوها حصفاً ، والغريب أنها تبدو مكتئبة ..

العمل لا يجلب السعادة .. قالتها (يوسف وهبي) قديماً
وكررها مراراً ، حتى كبرنا وأبركنا أنها خدعة يحاول بها
الأثرياء منع الفقراء من محاولة الإثراء ، لكن هذه الأسرة تخرق
للقاعدة ..

جربت ركوب الحصان عدة مرات فبدأ لي سهلاً .. بالطبع
ليس لدرجة أن أعبر به الحواجز ، لكنه حصان مهنّب لطيف
الحاشية على كل حال .. لو كنت ثرياً لاكتتيت هذا الحصان
الجميل .. هذه من النقاط القليلة المهمة في الثراء . صحيح أن
يوسعي أن أشتري حصاناً لكن أين أضعه ؟ .. في الحمام ؟

كنت جالساً معه - حمأى لا الحصان طبعاً - في
الشمس في ذلك اليوم ، بينما برنات وأمها تلعبان التنس
من بعد .

كان يلتهم فطيرة محشوة باللحم في نهم ، وقد احمر وجهه
وصدره كالطماطم ..

قال لي ضاحكاً وهو يكرر أنفه في تشنكة لا أحبها عندما تأتي
منه :

— « الطعام !.. من لذت الحياة القليلة المباحة .. كل لذة في الحياة كما تعرف ممنوعة قانوناً أو محرمة دينياً أو تسبب السمعة !.. »

قلت بلهجة ذات معنى :

— « أعتقد أنك متكيف مع نفسك في هذا الصدد .. »

هنا بى جرس الهاتف ..

راح يصغى بعض الوقت وتغير وجهه . ثم نهض وقال للمتصل بلهجة سريعة :

— « أنا قادم .. لكن تذكر أن هذا ليس موعدك .. »

ثم اتصرف متوتراً بعد ما طلب منى الآن .. لاحظت فى دهشة أنه برغم توتره حريص على أن يمشى فى خط مستقيم .. كأنه رسم خطأ على الأرض يمشى عليه ..

كانت الواجهة الزجاجية ممتدة بطول البناية ، وكان بوسعك أن ترى من بالداخل بوضوح شديد .. هو وضوح غير متبادل على الأرجح لأن الظل يصرنى ، بينما الإضاءة ساطعة بالداخل .. على الأرجح هم لا يروننى ..

هكذا استطعت أن أرى الخاتم يدخل قاعة الاستقبال مع ذلك
الضيف قصير القامة الغامض رث الثياب . كان يتظاهر بأنه
متأنق لكن ثيابه كانت تشي بحقيقته .

رأيت الممبو (كرستيان) يتجه للرجل فودعوه في شيء من
التوتر للجلوس ، ثم يشير للخاتم كي ينصرف .. يشعل سيجاراً
في عصبية . يجلس ...

محادثة قصيرة عصبية .. ينهض ويفادر المكان ..

الرجل رث الثياب ينظر حوله . ينهض لصندوق السيجار
ويفتحه ليدس في جيبه حفنة من السيجار الممتاز .. إنه يبحث
حوله بحثاً عن شيء آخر يصرفه .. يلتقط شيئاً لم أتبين ما هو
ويدسه في جيبه ..

حمای يعود لضيفه .. يناوله مطروفاً ... الضيف يفتح
المطروف ويخرج بعض الأوراق المالية .. بعدها ، ثم يهز رأسه
راضياً . المزيد من الجدل .. ثم ينهض للزائر وقد بدا عليه عدم
الرضا لكنه يدمى المطروف في جيبه .

حمای يتأكد من رحيل الضيف ثم يعود إلى الخارج .

جميلة جدًا لغة الإيماءات هذه .. لو طلبوا منى وضع حوار لهذا الفيلم لصامت الذى دام عشر دقائق ، لكان كما يلى :

— « جاك .. لقد دفعت لك منذ فترة قصيرة جدًا .. »

— « الحياة باهظة للتكاليف يا سيدى .. والمرء يعانى كى يظل صامتًا .. »

— « طلبت منك مرارًا ألا تأتى إلى البيت .. »

— « حاولت الالتزام بذلك ، لكنك لم تذهب لشركاتك منذ فترة .. قيل لى بك مريض فجئت أقدم تحياتى .. »

— « خذ هذا المبلغ ولا تفش أسرارى .. لكن تذكر أنك لن تعود قبل شهر .. »

— « ما هذا ؟.. المبلغ غير كاف .. »

— « ليس عندى سوى هذا ما نمت لا تقبل الشيكات .. »

ما رأيته هو ببساطة عملية ابتزاز واضحة الأركان ، ومن الجلى أنه طلب من المبتز ألا يأتى للبيت لكن الرجل لم يستطع الانتظار .

ليبتراز بأي شيء ؟ .. كل شيء ممكن مع طريقة حياة حماي
الصاخبة . لابد أنه يترك خلفه طريقاً طويلاً من الفضائح ..

رجل الأعمال الناجح سوف يدفع أي مبلغ طبعاً كي لا تعرف
صحف (البهاراتري) أنه .. أنه ماذا ؟ .. أي شيء .

عاد إلى الحديقة وهو يمشي في خط مستقيم كعادته ، ليجلس
ويواصل التهام فطيرة اللحم . قررت أن أفس له السم في الفصل
وأخبره أنني لاحظت ما يريب ، فقلت :

— « لا أعرف شيئاً عن زاترك هذا لكني رأيته من وراء
الزجاج ... ملأ جيبه بالمسحرج الفاخر ، ثم سرق شيئاً ما كان
على مائدة صغيرة بجواره .. »

نظر لي للحظة متسائلاً عما أعرفه بالضبط ، ثم قال وهو
يقضم قضمة علفاة :

— « لص .. أنا أعرف ذلك ... إن الهازنس يضطرك إلى
التعامل مع عينات بشر غريبة بعض الشيء .. »

وفجأة بدأ يتوتر .. ازدادت سرعته في المضغ .. بدأت أوردته
تحتنق ، ثم نظر لي بوجه كالشيطان وقال :

« هل تجسّس علىّ ؟ »

ثم اكن أتوقع رد الفعل هذا .. اعتكلت فى جلستى وقلت فى لرتبك :

— « لو كنت أتجسس عليك لسمعت ما يقال .. بالطبع لا أعرف أى شيء .. كيف يمكن أن أبعد عيني عن شخصين جالسين على الناحية الأخرى من الزجاج ؟ »

لكنه كان فى حالة غضب جنونية قلما رأيتها لدى الكنديين الأقرب للهدوء والتهذيب .. وعاد يكرر :

« هل تجسّس علىّ أيضا الشاب ؟ .. هه ؟ .. تجسّس علىّ ؟ »

تعالى صوته حتى أن الخدم نظروا نحونا فى فضول .. وتوقفت الممرّتان عن لعب التنس .. لو بقيت لاستمر فى الصراخ ، ولو نهضت لبدوت كالمطروود ..

فى النهاية نهضت وغادرت المكان وأنا فى حالة سيئة من القبط والارتباك .. رد فعله كذلك جعلنى عاجزا عن الرد برغم اتنى سابط اللسان ..

فى الحقيقة لما عرفت عنه أكثر مما ينبغي ، لكنى لا أعتبر
نفسى جاسوساً .. لم أفتح درج مكتبه لأقتش عن ملفات سرية ..
لم أمش وراءه فى الشوارع ..

دخلت غرفة النوم هائلة الاتساع وارتيمت على الفراش
بهذلى وأنا أشعر أن كندا ضيقة جداً ختقة جداً ..

ظللت أنظر إلى السقف ملوكراً .. ربما حان الوقت كى آخذ
برنات لآى فندق نمضى فيه الأيام الباقية من إجازتى . إنها
إجازة سيئة فعلاً .. أسوأ مما توقعت ..

هنا سمعت صوت خطوات ..

طبعاً هى الأم جاءت تعتذر لى عن فظاظه زوجها ، لو هى
برنات جاءت تلومنى لأننى تجسست على أبيها .. أو ..

لكن صوت الخطوات هذا .. ليس صوت خطوات حماتى ما لم
تكن قد تحولت إلى فرس نهر .

فوجئت بالرجل قائماً .. فاعتدلت فى جلستى ..

كان وجهه يحمل الكثير من علامات الأسف والخجل وكان
كذلك صادقاً .. وكان يحمل كأساً فى يده كعادة الغربين عندما
يواجهون موقفاً صعباً ..

جلس على حافة الفراش وقال وهو يحك شعره :

— « علاء .. لم أرد أن أكون فقط لكن أعصبي كنت في مكان زلق .. لقد انزلت .. »
 قلت له وأنا أنظر في عينه :

— « سيدى .. لما لا أهلك بشنونك ولا أريد معرفة أسرارك ، لكنى أعرف جيدا معنى هذا المشهد .. أنت فى ورطة .. هذا الرجل يبتزك لهذا أنت متوتر .. لهذا أنت سريع الغضب .. عندما فى مصر مثل يقول : (ألقى على راسه بطحة حلس بيها) .. أنت تشعر بهذه البطحة لهذا انفجرت .. »

كنت متاهبا لانفجار آخر ، وقد أعدت مجموعة شتقم فرنسية ممتازة جدا تذكرتها على الفور ، لكنه كان هشا مستعلما وقال لى :

— « أنت تفهم أننى لا أستطيع التحكم فى شهواتى .. كانت فتاة صغيرة السن ، لكنى لم أعرف هذا .. النتيجة أن الرجل — وهو أخوها — التقط لى الكثير من الصور التى يمكن أن تهدم كل شيء فى حياتى .. الأسرة .. العمل .. السمعة .. لا أستطيع

عمل شيء سوى دفع كل ملهم يطلبه . إن طلبته تزداد كثافة وجشعه يتفاحم لكن لا مفر أمامي .. »

رجل عبقري !.. تحرش .. فتبت قاصرات .. مبتز .. لو سمعت أمي كل هذا مترجماً للطمت خديها واسألتني عن هذا السبب الذي لقمته على أسرتنا .. لحسن الحظ أننى لفرق بين برنات وأبيها ..

أملت هؤلاء الذين يرثون لأنفسهم ويشعرون بأنهم ضحية طيلة الوقت . يقبض رجال الشرطة على اللص فيقول في أمي واستسلام : إنه الشيطان .. يقع السطاح في الفخ فيشتم الظروف .. تفسد الفتاة سمعتها ثم تعلن أن السبب أنها لم تجد من يلهمها في محيطها الأسرى . واضح أن هناك وخبذا واحداً في هذا العالم هو أنا .. أنا الوحيد المسئول عن أفعالي ولا أطلب صفحاً من بشرى ..

قلت له بلهجة لا مزاح فيها :

— « طبعاً لم تستطع قتله .. هؤلاء المبتزون يتركون معلومات عن أماكن تواجدهم في كل مكان ، ويتركون مقروفاً لدى أحد أصدقائهم يفتح في حالة موتهم .. »

قال في صدق :

« أنا لا أؤذي كائنًا حيًا حتى لو استطعت .. »

ثم تشابك كفر من التنهر فجأة ، وقفل وهو يرقد على السرير
ويضع رأسه على الوسادة :

« أرجو أن تسمح لي .. لقد أتعبتني هذه المناقشة طويلاً
وقد صار جفناي ثقيلين .. سأتنام قليلاً .. »

طبعاً سمح له فهذا بيته وهذه غرفته والفرش ابتاعه من
مقه ..

لكن الأمر كله غريب ! ... جاء ليعثر لي وفجأة قرر أن ينام
قليلاً ... هذا بشير الجنون فعلاً ..

10 - مكالمة غاضبة ..

قلت لبرنات وأنا أقلب مجموعة الأوراق التي أخرجتها لى من ملف كبير :

— « أنا متأكد من وجود خطأ ما .. »

مطت شفيتها السفلى بمعنى أنها لا ترى ما يثير دهشتى .

أررفت وأنا أتفحص ورقة أخرى :

— « هناك شيء خطأ .. أبوك مريض جداً وأنا متأكد من هذا ..

هناك أمراض تسبب سلوكاً غريباً لا يفهمه الناس .. تصمم الرصاص مثلاً ... »

قلت فى خبت :

— « تصمم رصاص ؟ »

— « نعم .. يصيب المهاجرين ، وكان يصيب عمال المطابع

قديمًا وكل العاملين فى مجال الترصيص .. »

قلت بذات الخبت :

— « أنت دقيق للملاحظة .. لاحظت أن أبى يشغل وقته فى الترسيس فعلاً .. »

قلت لها فى غيظ وقد صعد الدم لرأسى :

— « لضرب مثلاً لا أكثر .. تسمم الرصاص .. بعض الأورام التى تسبب إفراز هرمونك زائدة والتى يسمونها Paraneoplastic syndromes .. مرض (أليسون) .. الشيخوخة ذاتها تسبب نوعاً من الباراكوبا .. كل هذه أمراض تسبب تغيراً فى السلوك .. »

قلت وهى تمشط شعرها فى المرأة العجالة :

— « كما ترى .. هذه هى الفحوص الدورية لأبى .. آخر فحوص .. كل شيء على ما يرام باستثناء نقص بسيط فى البوتاسيوم عرفنا سببه .. لكنك تبدأ من فرضية وهمية هى أن أبى غريب الأطوار .. فى الحقيقة أعتقد أنك أنت غريب الأطوار .. »

لم يكن بوسعى أن أخبرها بكل شيء طبعاً ، لكننى كنت قد وصلت لشبه يقين : هناك سبب ما لما يقطعه هذا الرجل .. لا يكفى أن يكون وغداً . ربما هناك حيلطات صغيرة فى المخ أنت لتغير شخصيته . لكنه لم يجر أشعة مقطعية أو أشعة بالرنين

المقاطيسي لاستبعاد هذا الاحتمال ، ومن الصير أن أقتعه بذلك .

كل الفحوص ممتازة فعلاً .. هذا الرجل ليل على تقدم الطب الكندي .. لو صرت بصحته وأنا في الستين لاعتبرت نفسي سعيد الحظ فعلاً ...

هنا خطر لي خطر مرعب .. الإيمان .. الرجل ثري جداً ويمكنه الحصول على ما يريد من مخدرات ، فهل هناك مخدر يسبب هذا ؟

قلت لبرنات إني راغب في استئصال الإنترنت ، فنهضت مغادرة الغرفة .. علقت لي بعد قليل بجهاز لاب توب يتصل لاسلكياً بالإنترنت ، وفتحته لي .

فتحت دائرة معارف العقائير ، وقمت بإدخال موضوع البحث :

« تغيرات شخصية + عقائير .. »

هنا فوجئت بقائمة مخيفة .. أحتاج إلى عشرين سنة كي أقرأها كلها ...

يبدو أن كل عقار في العالم حتى فيتامين (أ) يغير الشخصية ..
 هكذا قضيت ساعات سوداء في عالم اللطب على الإنترنت ،
 ولم أصل لشيء .. لكن كل عقار يترك أثراً آخرى مثل ارتفاع
 في ضغط الدم أو تغيرات في الحفظة .. إلخ .. لا يوجد عقار
 يكتفى بأن يجعك وغداً ..

يجب أن أراقب الرجل جيداً .. سوف يستخدم هذا العقار
 لا محالة ، وسوف أعرف قصته بالضبط .. أول شيء يجب
 القيام به هو شراء تلك الميكروفون الحساس الذي وجدته في
 أحد الأسواق لمس . هذا ليس تجسساً بالضبط ، لأننى أريد
 مصلحته .. أريد معرفة متى وكيف يحصل على المخدر ..

★ ★ ★

قضيت أياماً جميلة مع (برنات) ترى معالم كندا التى يمكن
 رؤيتها لمن يملك برنامجى ، لكنى برغم هذا لم أر الولايرين ..
 حيوان المصنكب رمز كندا ، وهو ينتمى للبهية لكنه يبدو كغيب ..
 ساعدنى هذا الجمال كله على تسيان (كريستيان) ومشكلته ..
 إن برنات تكون فى أفضل حالاتها عندما تبعد عن أبيها ، بينما
 هى تستفزنى فعلاً عندما ترى عيوبه واضحة كالشمس لكنها

تبررها بألف طريقة ممكنة . عيبه الوحيد بالنسبة لها هو أنه مستبد ومتسلط ويريد أن يصيبها فى القلب الذى أرادته .. وهى تمررت على هذا وعاشت الحياة التى اختارتها . انتهى ... كل كلمة أخرى أقولها أنا تعود لأننى أحقق ...

أو — وهو ما لم تفلته — ما أراه فى أبيها هو انعكاس روحى المظلمة الدنسة .. أنا وغد لهذا أرى كل الناس كذلك ..

كان كل شيء على ما يرام وأنا بعيد عن المشاكل ، لكن المشاكل لا تريد تركى ..

ليلة هائلة تزحف على (تورنتو) ...

ها هو ذا جرس الهاتف يدق فى البيت الصالح . مدبرة المنزل ترد .. تتجه لى حيث كنت جالسا فى الشرفة مع (برنات) على الأرجوحة نشاهد على لآب توب صغير الصور التى أخذناها لشلالات نياجرا .. تقول لى بلهجة مهذبة :

— « السيد يريد أن تكلمه .. »

أى سيد ؟

آه .. نسيت مشاكل الرجل ونسيت أنه موجود أصلاً ..

— « هل يريدنى أنا ؟ .. »

— « أنت بالذات . يا سيدى .. »

نهضت متوجسًا لألحق بها بينما اعتبرت (برنالت) الأمر طبيعيًا ..

رفعت سماعة الهاتف ووضعتها على أذننى كلتنى لضع ثعبانًا ..
وقلت بحذر :

— « هالو ؟ »

جاء صوت حمادى مذعورًا خلفًا :

— « علاء .. أنا فى مشكلة .. مشكلة خطيرة .. يجب أن تاتنى
حالا ولا تشعروا أحدا بشيء .. إتنى فى فندق (راديسون)
غرفة رقم 305 .. لا .. لا تأخذ سيارة من البيت ، بل تعال
بسيارة أجرة .. »

تقلصت لأضالنى .. صوته يدل على مصيبة ..

هكذا وضعت السماعة وقلت لبرنالت شيئًا على غرار إتنى
راغب فى جولة قصيرة ، ثم انطلقت فى الحديقة إلى أن بلغت
البوابة ..

ولكن .. هذه الضاحية بعيدة عن حركة المرور ، فلا سبيل للحصول على سيارة أجرة إلا بالاتصال بشركة السيارات . هكذا عدت إلى الداخل وطلبت من برنات أن تأمر سائقًا بمراقبتي ..

— « هل أنت متأكد من أنك لا تريدني معك ؟ »

قلت في لرتبك وقد احمرت لثنائى (عرفت هذا من المخبونة) :

— « لا .. سوف أعود سريعًا ... »

قلت في شك :

— « من الذى اتصل بك ؟ »

— « صديق كندى .. يبنى كونت صدقات هنا .. لا تسمى هذا .. »

قررت أن تبتلع شكوكها .. هى لم تكن من الطراز الفضولى على كل حال .. لم تكن تدعى أنفها فيما لا يخصها ، وكان هذا — عدم بس الأنف — يوحى لى أحيانًا بأن لها طلبًا رجوليًا لا شك فيه ..

هكذا وجدنتى أخالف التعليمات وأركب فى سيارة من أسطول سيارات أبيها نحو فندق (راديسون) هذا ...

11 - ورطة ..

كلما حسبت نفسي نكيًا اكتشفت أنني أتصرف بمذاجة لا حد لها ..

لقد قرعت الباب ، فتفتحت لأجد حماي .. كان غارقًا في العرق وورطة عنقه مفتوحة وحاله في منتهى السوء .. اعتدت أن أراه قريبًا ثابت الجنان ...

الغرفة أليفة جدًا واسعة جدًا ... يبدو أن هذا من أفخم فنادق (تورنتو) ..

دخلت ولقيت نظرة من حولى .. هنا رأيته ..

كانت جالسة على أريكة جوار التلفزيون المفتوح . المشكلة أنها ليست جالسة بالضبط بل هي ممددة في وضع الجلوس ورأسها ملقى على كتفها بشكل مقلق . فتاة لا يمكن أن تتجاوز سن السابعة عشرة .. لها شعر أسود طويل جميل ، لكن المشكلة الآن هي أن عينيها مغمضتان وتتنفس بصعوبة ..

نظرت له في عدم فهم فقال :

« لقد كانت بخير .. ثم دخلت الحمام وعادت .. عادت بهذا

الشكل و ... »

أعتقد أنني خمنت ..

هذه الهالات السوداء تحت عينيها ، والعرق الغزير .. نبضها
واهن جداً ...

الحقيقة متسعة ... هذه علامة مهمة لكن على أي شيء ؟

كشفت عن ساعدها بحثاً عن علامات حقن ، فلم أجد لكنى
وجدت آثار أظفار .. حكك قوى لدرجة تمزيق الجلد .. كتبت
تحك نفسها بقوة . لا أعتقد أنها مصابة بالجرب وإلا فهي
(الجربانة) الوحيدة في كندا .. على الأرجح هذه براغيث
الكوكايين coke bugs .. من علامات تعاطي الكوكايين المعروفة ..
المدمن يشعر طيلة الوقت أن براغيث تجرى تحت جلده فلا يكف
عن الهرش ..

بحثت عن الحمام والرجل يتبعض متوتراً .. فتحتة ورحلت
أبحث فيه ، إلى أن وجدت الشريحة الزجاجية إياها والموسى
وبقايا المسحوق الأبيض .. تعلمت معنى هذا المشهد من السينما
لا من دراستي الطبية .. الفتاة بخلت الحمام لتتعاطي جرعة فكان
ما كان ..

عدت للغرفة وقلت له ولما أنظر إلى الفتاة :

— « جرعة عالية من الكوكايين .. الأمر واضح .. »

قال في بلاهة :

— « هل هي في خطر ؟ »

— « لا أعتقد .. هي تحتضر فقط لو وجدت هذا خطرًا بما

يكفى .. »

كان في حالة شديدة من الغباء وكنت أنا في أشد حالات الغيظ ..

طبعًا هذه هي ذات الفتاة التي يبتزه ذلك الرجل بها .. لم يقطع
علاقته بها .. ما زال وغداً .. لكن الأمر يتجاوز حدود العبث ..
هنا فتاة قاصر ومخدرات واحتمال وفاة .. هنا مشكلة مع
الشرطة ..

لكن لا وقت للتفكير .. الفتاة تموت ...

قلت له أمرًا أن يطلب الإسعاف .. فقال :

— « لكن .. لكن .. حسبك قلبرًا على عمل بعض الإسعافات

الأولية .. »

قلت في غيظ :

— « وينتهي الأمر وتعود لبيتك سعيدًا .. أنا آسف .. لم
يعطوني سحر الفودو في الكلية .. لأهد من مستشفى وتنفس
صناعي .. »

كان موقفًا في غاية السوء بالطبع ، لكنه قصص بالاستقبال ..
ولمركت من طريقهم في الكلام معه أنه يأتي كثيرًا هنا .. زبون
دائم ..

بعد ست دقائق — كما تعلمت عن الكنديين — كان المسطون
في الغرفة ، وقد قاموا بإجراء تنفس صناعي سريع للفتاة بجهاز
(أمبو) . هنا تذكرت أن المرء يمكن أن يكون حمارًا فعلاً ، لأنه
كان بوسعي عمل ذلك في انتظارهم ...

قلت لأب همنًا بينما المسطون يأخذون الفتاة معهم :

— « لقد جئت بسيارتك ! .. لم أجد سيارة أجرة .. »

نظر لي بعينين زائغتين ، ولم يقل شيئًا ..

كانت سيارة الإسعاف تنتظر بالخارج حيث قام المسطون
بإخلاء المحفة ، ولما عرفوا أنني طبيب عرضوا علي أن أركب

السيارة معهم . قلت لحماى أن يلحق بنا فى المستشفى ، وركبت فى مؤخرة السيارة مع الفتاة ..

سألنى أحد المسعفين ، ويدعى (بيير) كما عرفت :

— « منذ متى هى تتعاطى المخدر ؟ »

— « لا أعرف .. صدق لو لا تصدق .. أنا لم أرها إلا منذ نصف ساعة .. »

ابتسم وشرحت أنه لم يصدق حرفاً ...

أنا أحمق ..

طبعاً أنا أحمق ..

عرفت هذا عندما دخلنا المستشفى ، وعندما ركض رجال الإسعاف بالمحطة .. عندها عرفت أنني وحدى ... حماى لم يلحق بهى كما اتفقتا . لقد تأكد من أن ذلك الأبله قد تورط فى القصة وفر ..

أنا هنا وحدى .. للشخص الوحيد الذين يعرفون أن له أى ارتباط بالفتاة .. وهكذا اتهم على رأسى قبض من أسئلة المسعفين وقبض من أسئلة رجال الشرطة عندما جاءوا .. لقد تورطت فى الوحل وغدت كل محاولة للخروج تزيدنى غوصاً ...

رحت أكرر قصتى عن حماى المهم رجل الأعمال الذى تورط فى هذه القصة . لا أعرف أين ذهب .. كنت مرتبكاً بالفعل وبدوت مريباً بلا شك . كنت أفكر طيلة الوقت فى أن من يجاور نافخ الكبر لابد أن يحرق ثيابه أو يجد منه ريحاً منتنة . أنا جاورت نافخ الكبر كثيراً جداً ..

أتفنتى بشكل مؤقت فنوم رجل على يبدو أنه مهم كذلك .. رجل قصير القامة متأنق جداً نافذ الشخصية ، وقدم نفسه لرجال الشرطة أنه (جيرار مكنوفى) محامى السيد (كريستيان جونز) .. على الأقل أرسل لى محامياً يساعدنى . ولم يكن (جيرار) محامياً فقط بل هو رجل متعدد العلاقات ، وقد أجرى بعض مكالمات مع قوم مهمين كما هو واضح .. أما النقطة الأهم فهى أن الفتاة تجاوزت منذ شهر واحد من القاصر .. إنها فتاة شابة وإن بدت كمراهقة ، ولولا هذا لما نجا حماى العزيز من المصاعلة ..

عرفت أن الفتاة ستجو .. إنها لم تعد فى غيبوبة لكنها نائمة .. فى النهاية قل لى رجل الشرطة الذى تهكنى بالأسئلة العبارة الشهيرة :

— « يمكنك أن تعود لدارك يا دكتور .. نحن نعرف عنوانك وعلى الأرجح سنتصل بك .. »

ضحك المحامى الأريب وصافح رجل الشرطة ، ثم تنكر دعابة ما فتحنى يهمس بها فى أذن الشرطى وتلجج الرجلان بضحكان ..
ثم إن المحامى رفع باقة معطفه وتلبط نراعى وقال :

— « ليلة عصبية .. أليس كذلك ؟ »

ومشيت معه إلى حيث كانت سيارته فى ساحة الانتظار خارج المستشفى ..

قال لى وهو يدير المحرك الذى تجمد من البرد :

— « على الأرجح صار أخو الفتاة فى قبضتنا ، فالفتاة مدمنة لكنها كذلك تروج للمخدرات مع أخيها .. سوف نتكلم ، وعندها سيكون عليه أن يدمر ما لديه من صور ويغادر البلدة وإلا حركنا هذه التهمة ضده .. أنا قاهر على جعله يتجو وقادر كذلك على جعله يدخل السجن ... إننا نمرح كثيرا فى هذه المهنة بشرط أن تجد محاميا مثلى ، وأن تقدر على الدفع له .. »

قلت لنفسى (أحمق ثرثار كذلك) .. من الذى أخبره أننى أعرف أى شيء عن الموضوع ؟ .. أليست هذه أسرار موكله ؟

لكنه قال كأنه خمن تفكيرى :

— « مسيو (جونز) أخبرنى أنك تعرف شيئاً عن موضوع
الابتزاز .. »

ونظرت لساعتي .. ثلاث ساعات مرت فى هذا الكابوس ...
سوف يكون أول شيء أقطعه هو أن آخذ (برنات) ونذهب
لأى فندق .. إن أمضى ساعة واحدة فى بيت المجانين هذا ..

دخلت إلى قاعة الجلوس الواسعة ..

كانت (برنات) هناك مع أمها وأبيها .. وكنت وجوههم
تحمل نظرة ولجمة صامته .. تماسكت حتى لا أركل العجوز فى
مؤخرته ، وقلت لبرنات فى حزم :

— « أرجو أن تحرمى حقائبك .. نحن سنمضى بقية الإجازة
فى فندق .. »

لم يرد أحد .. فقط قالت أمها وهى تحنى فى البساط :

— « اجلس يا (علاء) .. »

لم اجلس وعنت أكرر فى عصبية :

— « هلا نهضت يا برنات .. لا أريد البقاء هنا ثقية واحدة .. »

قلت الأم دون أى تفاعل فى صوتها :

— « قلت لك أن تجلس يا علاء .. إن الموضوع مهم .. »

— « بالفعل هو مهم .. لقد قضيت ساعات قاسية فى

المستشفى بسبب ... »

قلت مقاطعة :

— « نحن تناقش رغبة (برنات) فى الانفصال عنك ! »

12 - فرصة أخيرة ..

لا بد أنني قد كنت كابلًا كهربيًا ..

لقد مرت الكهرباء في جسدي ، ووجدتني ألتفتض للحظات ..
نظرت لبرنات غير مصدق ، فوجدت الدموع بدأت تحتشد في
عينها .. أخيرًا قلت وهي تتنفس بصر شديد :

— « لم أعد أتحمل أكثر .. أنت فقت صوابك منذ جلنا لكندا
يا علاء .. مرة تتشاجر في ناد ليلي من أجل فتاة ، واليوم أنت
في غرفة فندق مع مدمنة مخدرات ومراقة كذلك .. يبدو أن
هريق الحياة الغربية جطك تجن . لقد كنت محتفظًا بشباك عندما
لم تكن هناك إغراءات .. يصعب أن يفقد المرء صوابه وسط كل
الفقر والمرض اللذين رأيناها في سافارى ، لكنك كنت كحارس
المرمى الذي لم يُختبر .. بضعة أيام في كندا كانت كافية كي
أسمع عنك كارثة كل يوم .. »

هنا انفجرت وقد فهمت كل شيء :

— « لم يقل لك أبوك لماذا ذهبت إلى الفندق ؟ .. لماذا ذهبت
للمستشفى بينما تخلصي من كالجبناء ؟ »

قالت (برنات) وهى تجفف لموعها بمنديل ورقى :

— « لبي ذهب للفنق كى يخلصك من ورطتك .. لرسلك لك محاميه .. »

— « هو قال هذا ؟ »

— « أنت غارت للبيت بعد مكالمة وكنت غامضاً جداً .. ورفضت أن أصحبك .. الآن نعرف ما حدث بالضبط .. »

نظرت للرجل فوجدت فى عينيه كل أمارات التعاطف معي .. كان يلهمنى ويشفق على .. الشباب يخطئ أحياناً لكن علينا نحن الشيوخ أن نتسامح .. ومن الغريب أنه كان يضع أمامه كعكة كبيرة يلتهمها فى جشع .. لابد أن الخوف زاده جوعاً ...

أدركت أنني لو وضعت يدي عليه الآن فلنصوف ينتهى الأمر به على منضدة التشريح ، ولنا فى السجن .. هل كندا تدعم القتل ؟

كذبة كبيرة جداً واسعة جداً .. نذالة لا توصف .. لهذا يسهل أن تصدق ما يقول .. هذه مدرسة الخوالة النازى (جوبلز) الشهيرة : كلما كبرت الكذبة صار تكرارها مستحيلاً ، لأن الناس لن تصدق أن هناك كذبة بهذا الحجم .

لهذا صار — حماى لا جوبلز — رجل أعمال عظيمًا .. إنه
بلا ضمير من أى نوع ..

نظرت له وقلت :

— « وأنت .. ألن تعلق ؟ »

قال على الفور والأسى بغير ملامحه وخداه محشونان :

— « حاولت إقناعها أن لكل منا لحظة ضعف ، لكنها مصرة
على الانفصال .. يبدو أنك ضغطت على أعصابها كثيرًا جدًا ... »
سوف أقتله .. سوف أقتله ..

من السهل أن تتضح الحقيقة .. سوف تتكلم الفتاة وسوف
بشهد موظفو الفندق بأن السيد (كريستيان جونز) جاء أولاً مع
الفتاة ، وليست هذه أول مرة .. لكن الرجل قد أثار الكثير من
الغبار بحيث صار تبيين الحقيقة صعبًا فعلاً على الأقل بالنسبة
لبرنات ..

طبعًا من السهل أن أطلق السبب وأعلن ما معناه (أعلى
ما فى خيلكم لركبوه) ، لكنى أعرف (برنات) جيدًا .. هى
طيبة وتحبنى حقًا .. وهذا الغضب سببه خوفها من أن تفقدنى ..
تفقدنى بطريقة مهينة . لا أعرف ما قاله لها أبوها عن

(علاقتي بالسينة) فى غربى لكنسه مؤثر ومقتع حتماً . إنها تعرفنى جيداً لكنها لم تجربتنى فى مجتمع غربى منفتح كهذا .. لهذا صدقت ..

السبب التالى هو أننى فعلاً بدأت أعتقد أن الرجل يعتمد توريثى .. إنه أخبث مما توقعت وهو يريد أن يفرق بيننا بهذه الطريقة .. بأن ينزع عباءة أخطائه ويضعها على كتفى .. بأن يفتتح (برنات) أننى خنزير . بأن تطلب الطلاق بنفسها — وهو ما حدث فعلاً — وبهذا تعود له ابنته الحبيبة بأسهل الطرق .

تخطيط عال جداً رفيع المستوى .. فقط أنا الأحمق المنذفع السلاح الذى تكفى كلمات كى ينفجر ويضربك ، وتكفى كلمات كى يبكى كالأطفال ، وتكفى كلمات كى يمنحك حياته ...

لن أجعل مهمته سهلة ..

ابتلعت ريقى ونظرت للأرض قليلاً ثم قلت بهدوء كائننى أخرج للعم :

— « لا أريد مناقشة هذا الموضوع الآن .. ما سأفعله هو أن أنتقل للإقامة فى مكان آخر .. بعد يومين سوف نتحدث .. »

واتجهت للباب ، هنا دخل الخادم ليهمس بضع كلمات في أذن الأب .. فتصلبت ..

رأيتَه يتوتر ثم ينهض .. أعرف هذه للعلامات جيذاً .. رأيتها من قبل .. يمشي في خط مستقيم مفادراً الغرفة قبل أن أغادرها أنا ..

نظرت من فرجة الباب فرأيتَه يدخل رجلاً رأيتَه أنا من قبل .. رجلاً يحاول التلصق لكن ثيلبه رثة ويمسك المسجل ..

المبتز قد جاء بأسرع ما يمكن لدى معرفته الخبر ، وهذه المرة هو لا ينوي خيراً .. عيناه تطفحان بالشر .. أخته كانت تموت وهناك محام يضغط عليه و ... و ...

انطلقت بسرعة للبقي إلى الجناح الذي أقوم فيه ، فبحثت حتى وجدت أداة التنصت الدقيقة التي ابتعتها منذ أيام ..

المحادثة التالية ستكون مهمة جداً . سوف تتضمن كل شيء تقريباً وبالتأكيد لن تحتوى أية تلميحات .. سيكون الكلام شديد الوضوح ...

عت لاهثاً إلى قاعة الجلوس لأجد برنات ترمقى في دهشة ، قناديتها .. نهضت حائرة نحوى فحسبت الأداة في يدها ، وقالت :

« لو كنت تحملين أية مودة نحوى ، فعليك أن تتحلى عذراً وتخلين إلى حيث يجتمع أبوك وضيافته حالاً . أسقطى هذه الأداة خلف أى شيء في الغرفة ، ثم تظاهري بالخرج وغلري المكان .. هذه الأداة سوف تسجل ما يدور لمدة ساعتين .. »

تقلص وجهها في استنزاز وقالت :

« لكن هذا لا يليق ! »

« كما لا يليق به أن أتحمل لخطاء أبوك .. إذا كنت تتوین هدم بيت كامل فعليك أن تمنحيه فرصة أخيرة .. لكن أسرعى وإلا انتهت المحادثة .. »

تناولت الأداة الصغيرة كأنها تحمل عقرناً .. فلهتمست لها مشجفاً وغلرت القاعة إلى الحديقة ..

13 - بصيص من نور ..

بكت (برنات) كثيراً فى تلك الليلة ..

لم يكن ما قضت الوقت معه هو أداة للتنصت فقط ، ولكن
يمكن توصيلها بجهاز الكمبيوتر لنقل ما تم تسجيله .. بل إنها
كذلك فتحت مجموعة من الأقراص المدمجة الخاصة بابيها والتي
حصلت عليها من مكتبه المطلق ... هى تعرف طريقة فتح
الخزانة فهو يثق بها ويعرف أنها لن تفعل أبداً ما تفعله الآن ..
لكننا لسبب ما اعتبرنا أن الأمر تجاوز الأخلاق التقليدية إلى
غرض أشمل ..

كان كل شيء واضحاً .. مجموعات الصور تؤكد بوضوح
حقيقة الأب . أما عن المحادثة فهي كما توقعت .. لقد تكلم
الرجل كثيراً جداً وهو يؤكد بوضوح أن موعداً تم ترتيبه
فى الفندق مع الفتاة ، وحمای يقول بوضوح تام إنه استدعى
زوج ابنته الطبيب لمعالجة الفتاة لكنه أصر على اصطحابها
للمستشفى .. ثم هذه ليست غلطتى .. أنا لم أقدم لها المخدر
فلماذا تلومنى ؟ ..

هناك كلام عن تهديدات المحامى .. أبعد محاميك عنى
وإلا وجدت هذه الصور طريقها للصحافة ليعرفوا أى عجوز قنر
أنت .. كل شيء .. كل شيء ..

صار الأمر واضحاً بشدة ..

وكان وجه برنات يتبدل بين القسوة والدهشة والغثك
والصدمة والحزن ..

كما هى عادتى كلما ظلمت ومنذ الطفولة .. لحظة أن يتبين
صديقى .. تتدافع الدموع لعننى وترتجف شفتى السفلى ، وهو ما
فعلته بنجاح تلم ..

فهرعت (برنات) دامعة بدورها تحيطنى بنراعيها :

— « يا صغيرى .. أنا أسفة .. لقد ظلمتك بقسوة .. »

وأنا أقولم لدرغبة الطفولية فى أن لرمى على الأرض
واضربها بقبضتى وأردد : ما ليش دعوة باه !

الحق أنها كفت لحظات رائعة .. نحب أن نشفق على أنفسنا
أحياناً بدلاً من معاملتها بقسوة .. والحظات شعرت بأننى
رائع ... يا للنقاء والسمو ! ..

فلما انتهت هذه اللحظة الإنسية الحميمة وجنتى أحلى فى شاشة الكمبيوتر صارده ذهن .. وقلت لها وأنا أنظف عوينتى من الدموع الجافة :

— « ماذا تتوين ؟ .. هل ستواجهينه بهذا كله ؟ »

قلت صامتة ثم قلت :

— « لا أرى .. هذا موقف أقسى من أن أفكر فيه .. »

— « على الأقل لن نقيم هنا بقيقة أخرى .. »

عبثت برنات فى شعرها حتى حولته إلى كومة من القلف تغطي عينيها وقلت :

— « أتخلى عن أمى فى لحظات قاسية كهذه ؟ »

— « لو تتخلين عن زوجك ؟ إن أبك يريد أن ينعم بتفصنا .. أنا متأكد من هذا .. »

نهضت لتقف أمام النافذة الواسعة التى يسطرها ستار كثيف فلزاحته لتتأمل الليل بالخارج وقلت :

— « لا أعرف .. أبى لم يكن شريفاً قط .. كان متصلب الراى بكتورتا .. لكنه لم يكن من هذا الطراز .. »

— « إذن نحن نتكلم عن التسمم مرة أخرى ؟ »

ضحكت ضحكة عابثة وقالت :

— « لا تكلمنى عن تسمم الرصاص من فضلك فهذا يشعرنى
بأنك لست جاداً .. »

— « إذن هناك تفسير آخر .. وسوف نجده .. »

نظرت لى وتكرر ألقها للحبيب بطريقة (التشنيكة) وقالت :

— « هيا بنا .. »

جولة طويلة مرهقة تلك التى قمنا بها بين المواقع الطبية
المتعددة على شبكة الإنترنت .. لابد أننا شربنا جالونات من
القهوة وأكلنا أطناناً من البسكويت .. لو كان هنا لبأ لصارت
الحياة رائعة ..

تغيرات شخصية بعد المستين ... أسباب كثيرة جداً .. يبدو لى
أنه ما من مرض على ظهر الأرض لا يسبب ذلك .. إن تصلب
الشرابيين المخية يؤدى لتغيرات عديدة ، لهذا يتصرف المسنون
بضيق لقى وتصلب رأى وعند لا شك فيه .. أحياناً يكونون أقرب
للطفولة .. لهذا قيل إن الإنسان يبدأ حياته وينتهيها طفلاً .. هناك

كذلك الكثير من الشك في الآخرين ، ومثال العجوز المتشككة
التي تتوقع أن كل من يكلمها سفاح ، مثال شهير جداً ..

لكن تغيرات الشخصية في حالة أبى برنانت تجعل الرجل
يقترّب من سلوك الخنزير ..

قالت لى برنانت :

— « هل تشك في حالة كبده ؟... إن الفضل الكبدى يقترن
بسلوك طفولى مزعج .. »

— « لا أظن وإلا لأخبرتكم التحليل .. ثم تذكرى علته في
المشى في خطوط مستقيمة هندسية .. مريض الكبد المتقدم
يتصرف كالسكران .. »

إن ما نبحث عنه لمرض لا يؤدي لتغيرات واضحة في الفحوص
الروتينية .. لا تغير وظائف الكبد ولا سكر الدم ولا وظائف الكلى
ولا صورة الدم ..

قالت وهى تفكر :

— « خطوط مستقيمة .. هذه علامة على الوسواس القهرى ..
نضم الأظفار والمشى في خطوط مستقيمة .. »

هنا خطرت لى فكرة جديدة . قلت لها :

— « نحن نبحث بطريقة خاطئة .. لن نبحث عن تغيرات الشخصية ، بل سنذكر الأعراض نفسها .. لدينا شهوة جنسية زائدة .. مشراهة للطعام زائدة .. »

أضافت وهي تتذكر :

— « لا تتم النوم .. إنه ينام كالرضع .. اعتقد أنه ينام تسع عشرة ساعة يوميًا .. »

— « إذن فلتبحث عن ... »

وفجأة تبادلنا النظرات وقد بدأنا نرى الخيط الواهى الذى يربط هذا كله .. وصحنا بصوت واحد :

— « أمراض المهبل التحتى !!! »

14 - الوغد قد لا يكون وغداً ..

المهاد التحتى أو الـ **hypothalamus** الذى يعرفه كل طبيب جيداً ، وأصفه باختصار هنا بغير المختصين : إنه تلك الجزء الصغير الواقع فى قاع المخ ، الذى يربط بين الجهاز العصبى والغدة النخامية . المهاد التحتى يفرز العوامل التى تجعل الغدة النخامية تفرز بدورها .. وهذه الأخيرة تسيطر على الغدة الصم المسنولة عن هرموناتها ..

إن المهاد التحتى يلعب دور غرفة التحكم التى تنظم لنا النوم والأكل والظما والرغبة الجنسية وحرارة الجسد .. عندما ترتفع حرارتك من الحمى فالمهاد التحتى هو الذى مسبب هذا .. عندما تصاب بارق فالمهاد التحتى لا يؤدي عمله جيداً .. البدين يعانى من مشاكل مع المهاد التحتى وكذلك النحيل ..

هناك قائمة طويلة من الأمراض التى تنتج عن اختلالات المهاد التحتى ، لكن من بينها مجموعة نادرة تؤدى إلى شراهة شديدة فى الأكل والجنس وإفراط فى النوم ..

هل اقترينا من الجواب ؟

أعتقد هذا ...

عبث د . (جيسون) فى لحيته الحمراء وهو يطالع التحايل ،
ويصفى لقصتنا .. لم يقل شيئاً منذ بدأنا المسرد . فى النهاية
لمسك بقلم وورقة وراح يرسم خطوطاً ..

قال لنا فى سرود :

— « كل هذا جميل .. لكنى بحاجة إلى رأى خبير نحدد صُم ..
لا نستطيع أن ألقى بدلوى وحدى .. »

ثم رشف رشفة هائلة من القهوة الموضوعة أمامه وأردف :
— « أتما تتحدثان عن حالة كلاسية من متلازمة (كلاين
لوفين) ... »

المتلازمة Syndrome هي مجموعة أعراض تبدو لمن ينظر
من الخارج أنه لا يربطها شيء ، لكن الحقيقة أن لها تفسيراً
واحدًا واضحاً . عباقرة التشخيص فى الماضى كانوا يحبون مبدأ
Occam's razor (موسى أوكام) وهى قاعدة فى المنطق

تقول إن أفضل الحلول هو أبسطها .. الحل الذي يعطى تفسيراً واحداً لكل شيء . من الممكن أن يكون أبو (برنات) شرها وبالصفة شهوانياً وبالصفة كسولاً .. لكن هذا يفترض وجود ثلاث إجابات بينما هناك إجابة واحدة تغطي كل شيء ..

اتسعت عيوننا في عيم فهم ، فقال وهو يرشف رشفة أخرى :
 — « هذا مرض نادر .. لكنه التفسير الأقرب للصواب .. »



قال د. (جيسون) :

يعود وصف هذا المرض إلى العام 1925 عندما وصف (كلاين) هذا الداء في صبية مراهقين يعانون فرط النوم والأكل والنهم الشهواني . بعد عشرة أعوام وصف (ليفين) ذات المرض الذي اصطلح على تسميته متلازمة (كلاين ليفين) —

Kleine Levin syndrome

عامة كما قلنا يتضمن المرض نومًا زائدًا عن الحاجة وهي علامة مهمة جدًا .. بعض المرضى ينالم على الإفريز في الشارع أو في سيارة مفتوحة لا تخصه .. هناك الكثير من الحوادث

لدرجة ضرب الأقارب .. ثم الجشع فى الطعام .. والإفراط فى
المرغبات الجنسية .. يمكن بسهولة أن تعرف المرأة المصابة
بالداء من بدقتها وثيابها الخلية .

هناك نظريات عديدة للكيفية التى يحدث بها هذا المرض ..
هناك من قال إنه نتيجة ضربة قوية على الرأس أو ضربة فى
مباراة ملاكمة . لابد أن نقرأ صغيراً يحدث فى المهبل التحتى
وقتها . فى بعض الفتيات المراهقات تزداد الأعراض سوءاً قبل
أو أثناء الدورة الشهرية . هناك كذلك عامل وراثى معين يتبين
فى دراسة جينات هؤلاء المرضى . لكن لم نجد أية حالة لقريبين
سوى أخ وأخت أصيبا بذات المرض .

هناك حالات بدأت بعد نوبات إسهال وجفاف ... وهناك حالات
بدأت بعد إفراط فى تعاطى الكحول خاصة لمن لم يعتده . لا يمكن
كذلك استبعاد حدوث عدوى فيروسية غير ملحوظة تؤثر فى
المهبل التحتى.

على كل حال ، معظم حالات المراهقة شفيت بشكل تلقائى قبل
سن الثلاثين .

أما عن الحالات التي تصيب كبار السن فأعتقد من هذا ، لأنها غالباً ترتبط بحدوث جلطة دماغية صغيرة . نلاحظ هنا زيادة في أعراض الوسواس القهري ، فالمرضى يقضم أظفارهم ويعتني نوبات انفعالية من غضب وضحك لا مبرر لهما ، كما يميل إلى أن يكتب على جلدته وثيابه ، ويمشي في خطوط هندسية مستقيمة .. هناك دوماً اضطرابات في الوعي .. ربما نسيان متكرر أو فقدان القدرة على التركيز . معظم المرضى يصفون تفكيرهم بأنه (لزج وبطيء) لا يمكنه اللحاق بالأفكار السريعة من حوله . أحد المرضى جلس أمام شريحة لحم عاجزاً عن تذكر كيف كانت تؤكل بالشوكة والمكين في الماضي .

أن تبدو الموجودات حولك كلها غير حقيقية أو كأنها في حلم ، عرض مهم يتكرر كثيراً مع هؤلاء المرضى . كل شيء يبدو غريباً للدرجة أن أحد المرضى قال إنه لا يعرف صوته ويبدو له غير مألوف و (غير صحيح) .

قلت له وقد انتهى من كلامه :

— « عرض بارع فعلاً .. من جديد يضعا في المشكلة الأخلاقية الشهيرة : لو غداً قد لا يكون وغداً بل هو مجرد مريض .. لكن متى

ينتهي دور الفسيولوجيا وتبدأ المسئولية الأخلاقية ؟ .. هذا سؤال مهم ولابد أنه أرق الكثيرين من قبل منذ عصر (لامبروزو) ، لكنى لا أظنهم هل يقع هذا المرض فى نطاق تخصص طبيب الأعصاب أم الطبيب النفسى أم طبيب الغدد الصم ؟ «

قل باسمنا وهو يشعل لفافة تبغ :

— « كل هؤلاء ! .. وأضف لهم طبيب النوم .. أنت تعرف أن هذا تخصص طبي منفصل اليوم .. »

— « والعلاج ؟ »

— « قلت لك إن أفضل من يعطينا رأيا هو طبيب غدد صم .. فى هذه النقطة بالذات ، وإبنى لا أقترح أحد المختصين كبار السن ويعمل معنا فى المستشفى .. د. (برنارد شيرمان) .. إن برنات تعرفه جيدا .. »

هزت برنات رأسها وهى تفكر فى قلق .. يبدو أن هذا كله كان أكثر مما تتوقع أو تتحمل ..

بعد قليل قالت :

— « طبعًا .. طبعًا .. لكن هذا الكلام نظري أكثر من اللازم ..

كيف نتأكد منه ؟ »

— « لا توجد طريقة قاطعة سوى الصورة العلمية للمرض ..
لكن لو وجدنا دليلاً على جلطة فى المهبل التحتى لأبيك لدعم هذا
شكوكنا .. هناك كذلك تخطيط المخ الكهربائى .. »

صغرت (برنات) بهفتها وقالت :

— « لن يقبل .. هل يمكننا أن نعطيه العلاج دون تأكيد ؟ »

— « هذا صعب .. إنك بهذا تعرضينه لترساة لوية قد
لا يكون لها داع .. »

راحت تفكر قليلاً وهى تنق على المنضدة بئامها .. ثم كررت
فى إصرار :

— « لن يقبل .. »

كانها تقنع نفسها ..

15 - خدعة ..

قالت برنغت لأبيها فى كراسة :

— « ما زلت أرى أنه يجب أن تجرى بعض الفحوص .. أنا أفكر فى أشعة رنين مغناطيسى على للمخ .. »

للقى بالجريدة التى يملك بها وصاح فى عصبية :

— « للمرة الألف أقول لا .. أنا لا أثق بالطب .. لن أسمع لهم بأن يمرروا مغناطيساً فى مخى حتى أصاب بالخبال .. »

— « أنت تعرف أن هذا غير صحيح .. »

— « وأنت تعرفين أنه صحيح .. »

ثم قضم قضة كبيرة من الشطيرة التى جلبتها زوجته وجرع جرعة هائلة من كوب اللبن ، ثم أضاف :

— « يبدو أن الأمور تحسنت بينك وزوجك .. »

قالت فى حذر :

— « قررت أن أمنحه فرصة أخرى .. »

ثم وضعت يديها فى خاصرته وأعلنت تمثال :

— « أريد إجابة نهائية .. فما أريد الاطمئنان عليك قبل العودة إلى الكامبيرون .. »

— « الإجابة النهائية هي لا .. »

هزت رأسها بمعنى (كنت أعرف هذا) ثم غادرت للقاعة في عصبية ، وسلا صمت طويل .. كنت وحدي معه الآن .. فنظر لي وقال في فخر وهو يكور لفه بطريقة (التشنيكة) :

— « هل تذكر ذلك المبتز ... ؟ .. لقد انتهى أمره .. غادر المدينة ويزعم أنه نصف كل شيء بخصمني .. حتى لو لم يفعل فهو يعرف أنه متورط بما يكفي .. أهم شيء في الحياة أن تجد محامياً بارعاً وأن تستطيع أن تنفع له .. »

ثم حك لفه وقال وهو ينظر للسقف :

— « المحامي ! ... أهم مهنة في الوجود .. هل لديك محام ؟ »

— « لا .. »

— « إنن أنت لست حياً .. لا تعتبر نفسك حياً إن لم يكن لديك محام .. هذا يعني أنك في معترك الحياة وأنت تتصارع وأن لك أعداء وأنت تخطئ .. الموتى ليس لديهم محامون فقد تجاوزوا هذه المرحلة .. »

هزئت رأسى فى فهم .. بينما الصلابة تنخل الثرفة حاملة
 صحيفة عليها ستة من لكواب الآيس كريم . هل ينوى أكل هذا
 كله ؟ .. لو فعل هذا لألمى لأقرغت معنى على المجادة ..

هكذا نهضت وأعلنت أنتى مرهق .. فليسمح لى بأن أدخل
 مخدعى بعض الوقت ..

قل لاهنا بسبب ارتفاع الحجاب الحاجز :

« تذكر .. يجب أن يكون لك محام .. »

فى الثالثة بعد منتصف الليل سمعا الصراخ من جديد ..

يبدو أنه موعد نقص البوتاسيوم ..

هرعت مع برنات إلى الجناح الذى ينم فيه الأبوان . هناك
 كانت زوجته واقفة وقد بدا عليها هلع شديد ، بينما كان هو
 راقدًا على الفراش وقد فتح منامته كشافًا عن صدره وبطنه ..

بدا لى كمن يختنق وخطر لى للوهلة الأولى أنه فى نوبة قلبية ..

عندما دنوت أكثر شعرت بهلع .. إنه أحمر اللون كالطماطم
 وقد فتح منامته ليعرض صدره الذى أحمر بدوره للهواء ..

تحسست جلده فأتركت أنه يعانى سخونة شديدة .. هناك دسنة
من الأمراض تعطى صورة كهذه على كل حال ، وهذا يزيد الأمر
إرباكاً ..

كان يلهث وصاح فى جزع :

— « الحرارة .. النار ! .. أنا أحترق !! »

مدت (برنات) يدها وتحسست نبضه ثم هتفت فى جزع :

— « هذا الارتفاع فى الحرارة مريب .. قد يكون نزفاً فى المخ .. »

كان كلامها مطمئناً فقلت لأريل القلق عن الرجل :

— « أو نوبة قلبية .. »

واستدريت نحو الأم أمرها بأن تحضر الإسعاف .. لقد صارت
عادة ..

صاح الأب فى رعب :

— « لا تتركولى ! .. لا أريد أن أموت .. أيها الفنازير .. أنتم

مستعمرة من القمل فى رأس شعاد ! »

تم الأمر بملاسة وسرعة كما اعتنا .. وخلال ربع ساعة كنا
فى المستشفى ..

.. قياس ضغط الدم .. تخطيط القلب .. فحص الدم ..

بينما قمت (برنات) بأحد الأطباء من زملائها السابقين
جانباً ودارت مناقشة طويلة .

عندما عالت لى كات تبتسم فى رضا فلم تفهم ما يسعدها لهذا
الحد .. ألمست قلقة ؟

جلست جوارى على المقعد الطويل فى الاستراحة ، ووضعت
ساقاً على ساق وراحت تتفقد الأرقام على هاتفها المحمول ، ثم
قالت :

— « سوف يجرون له أشعة بالرنين المغناطيسى وربما ترتب له
أشعة تبعث البوزيترون PET .. سوف نجرى له تخطيط مخ
كهربائياً .. كل شيء ولن يجرؤ على الاعتراض .. إنه مذعور .. »

قلت فى غباء :

— « ما زلنا لا نفهم ما جرى .. »

قلت ضاحكة فى خبث :

— « لقد سمعت له بعض أقراص حمض الفينيكوتيك فى
طعامه ..!.. جرعة غير سليمة طبعا .. »

تذكرت هذه الأقراص الشيطانية اللعينة التى كانت تجعل وجهك يحمر كالطماطم حتى لتشعر بالدم يجرى فى شرايين الأذن ، مع شعور مرعب بأن رأسك سينفجر .. برغم هذا كان الفلاحون المصريون يحبونها جداً لأنها (تحضر الدم) كما يقولون .. فى النهاية هى مجرد قبتامينات لا أكثر ..

لقد وضعت (برنات) أباها فى حالة مرضية زلقة عن طريق هذه الأقراص .. النتيجة أنه صار على استعداد لأى شىء ، ولو طلبوا منه اقتلاع عينه ليدخلوا فيها منظاراً لوافق .. وبالطبع هى اتفقت مع زملائها على مجموعة للفحوص هذه .

من الصعب على الرجل أنه يصدق أنه ليس مريضاً ، بينما كل هذا الدم يحتشد فى رأسه ..

قلت لها ضاحكاً :

— « أنت خبيثة كالنعالب . فقط اتدع الله ألا تكون هذه الأقراص قاتلة لمرضى (كلاين ليفين) .. فما لكل ما نعرفه عن هذا المرض ! »

نظرت لى فى قلبى ، وهمست بصوت كالفرح :

— « هل تعتقد ذلك حقاً ؟ »

16 - العلاج ..

جالسًا أمام فتوس الأشعة الذي تراصت عليه صور أشعة الرنين المغناطيسى للمخ ، قال د . (برنارد شيرمان) وهو يتفحص تخطيط المخ الكهربائى ومستويات الهرمونات :

— « هناك جلطة صغيرة فعلاً ، وهى قد تفسر كل شيء .. لكن لا تنسوا أن لدينا إسرائفاً فى الكحوليات ، وهناك إصابة للرأس حدثت منذ علم وقرر الرجل أن يتجاهلها .. كل هذا قد يبدأ للمرض .. »

سألته (برنات) وهى تمسك بقلم وورقة :

— « إن يمكننا أن نقول إن هذه متلازمة (كلاين ليفين) فعلاً ؟ »

— « أعتقد هذا .. »

سألته أنا :

— « والعمل ؟ »

قال فى وفار وهو يقلب السكر فى كوب للقهوة الورقى :

— « عامة يتراجع المرض مع الوقت .. سوف يتحسن أبوك ويعود كما كان ، لكن بوسمنا لن نعجل من شفائه بحقن الميثيدرين الوريدية مع جرعة صغيرة من الكورتيزون بالفم . كل من جرب الليثيوم والكاربامازيبين حصل على نتائج ممتازة .. الليثيوم يتلاعب بتركيز مادة الميلاتونين التى تنظم إيقاع النوم ، والكاربامازيبين يقلل من شهوتى الطعام والجنس .. »

سألته من جديد :

— « هل تقترح بعض أدوية الاكتئاب ؟ »

قال فى وقار :

— « كل أدوية الاكتئاب لا قيمة لها هنا .. جربوها مرارًا بلا نجاح .. سوف نكتفى بهذه العقارات مع ملاحظته ومنعه من أن يؤذى نفسه .. »

هنا انفجرت برنات فى البكاء بتلك الطريقة الأثوية الغلغرة .. فنظرنا لها فى ذعر ..

قالت وهى تخرج متديلاًها :

— « المصكين .. كنا نعتبره وغداً شرها وأمي تعتبره خالقنا ،
وهو مجرد مريض كمرضى الدرن والملاريا .. لشد ما ظلمناه ! »
كنت أقتلها من غيظي .. كل هذا الكلام الرقيق عن أبيها
الملك وعن أئني وغداً أرى روى الشريرة منعكسة على أبيها ..
كل هذا كان كلاماً .. هي أيضاً كانت ترى أن أباهما غير طبيعي ..
ثم متى ظلمته ؟ .. لقد ظلمتني أنا فقط .. هو لاقي كل تدليل ..
لم يطلق د . (شيرمان) .. فقط ضم يديه وقال :
— « أنا معكم .. لا تقلقوا .. »

★ ★ ★

عاد الثرى العجوز إلى البيت بعد أسبوع ...

أنكر أنه كان جالسا هناك في الحديقة الغناء يراقب الحصان
الأبيض الذي يركض مع ابنه المهر الصغير ، ويراقب حمام
المسباحة .. جلست جواره ونظرت له فابتسم لى ..

هذه المرة الابتسامة صائقة ..

قال وهو يرشف رشفاً من كوب العصير :

— « أنا أتحسن يا علام .. هذا حقيقى .. لا أعرف كيف
أصف لك ما كنت فيه .. كنت فى حالة شديدة من الغباء وبطء
التفكير ، فلا أفيق إلا عندما أرى فتاة جميلة أو لرى طعلما ..
كنت أكل دون جوع على الإطلاقى ولم أكن أشبع أبدا .. فجأة
أشعر بغضب عارم وأتنى أريد أن أفتك بأى واحد ، ثم أهدأ
وأشعر بنعاس شديد .. المشكلة أتنى لم أعتبر هذا مرضا قط ..
حسبتها تغيرات مزاجية مصاحبة للشيوخوخة .. »

ثم مد يده فتحنس شعرى فى أبوة وقال :

— « ليس لى ابن ، لكنى شعرت حقيقة بأن عندى واحدا ..
أنت اعتيت بهى وحافظت على أسرارى قدر وسعك ، لكنى مدين
لك بنجاتى من هذا الكبوس .. »

قلت فى صوت مبحوح :

— « لم يكن اكتشافى .. الفكرة خطرت لى وبرتفت ... »

تمنيت أن أقول له بابا لكن الكلمة لم تخرج من حلقى طبعاً ،
فهى عاطفية أكثر من اللازم ولا تسمح بها الظروف .. دعك من
أنه ليس لى سوى أب واحد .. هو أبى ..

هنا شعرت بيد أخرى تملس على شعرى ..

كنت حملى الرقيقة أم برنات تقف خلفى والتأثر فى عينها ..

قلت لى فى رفق :

— « أنت رائع وإبنى مدينة لك بأشياء كثيرة .. لقد أنقذت حياتى بعد ما حسبته قد انتهت .. »

أمسكت بيدها عاجزا عن الكلام هنا شعرت بشيء غريب ..
شفتيها الدقيقتين المفضنتين لطبعنا على ظهر يدى فأجفلت ..

الآن صار من المستحيل — بعد كل هذا المجد — أن أعترف بأن
برنات تشاركنى التفكير ، وأن صاحب الفضل الأول بعد الله
تعالى هو د. (جيسون) .. هناك لحظة تتل فيها قرأ من المديح
بمنحك تلمعا من قول الحقيقة . فى فيلم (عمر المختار) أطلق
المجاهدون بإرانتهم سراح ضابط إيطالى ومعه علم إيطاليا ..
فلما عاد للقوات الإيطالية ، عومل كبطل حتى صار من المستحيل
عليه أن يعترف بأن المجاهدين هم الذين أطلقوا سراحه .. لم
بعد هذا من حقه ..!

قالت لى أم برنات :

— « لقد تغير كثيرا .. صار هو (كريستيان) الذى أعرفه
ويبدو أن الأيام القادمة أفضل .. »

قلت لها :

— « لو لم يتلق علاجًا لتحسن من تلقاء نفسه خلال سبعة أعوام .. »

قال السيد (كرستيان) ضاحكًا :

— « سبعة أعوام ! .. ما كنت لأظل حيًا سبعة أعوام أخرى مع كل هذا الأكل . أو كان زوج غيور سيفتك بى ! »

هنا ظهرت برنانت قلادة من بعيد وهى تحمل بعض الأزرار التى اقتطفتها لأبيها ..

انتهت إجازتى فى كندا ..

الإجازة التى أحمل معها منذ أعوام ، ومن الغريب أننى كنت على حق ، مصداقًا لمقولة (التى يخاف من الطيرت يطلع له) .

سوف أعود إلى الكامبيرون كسمكة تعود للماء ..

سوف أترك تورنتو بمشاكلها وقصصها .. سوف أترك هنا بعض الأسئلة ... مثلاً لو افترضنا لمجرد الفرض أن متلازمة (كلاين ليفين) التى أصيب بها حمادى ليست مكتسبة وإنما هى

تعود لأسباب وراثية . لو افترضنا هذا جدلاً فهل يعنى هذا أن
 برنات تحمل بذور هذا الداء ، وأنها فقط تنتظر ضربة على
 الرأس فى وقت ما كى تنام وتلك كالخنازير وتلاحق الرجال ..؟
 يصعب أن أصدق هذا أو أتخيله .. لكن من كان يصدق أن
 حمى مجرد مريض ؟....

على كل حال هذا خارج نطاق خبراتى التى اكتسبتها فى وحدة
 (سفارى) .

د. علاء عبد العظيم

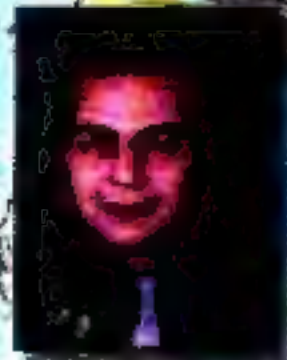
تورنتو - كندا

تمت بحمد الله

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
كي يظل حيا وكي يظل طبيبا

روايات مصرية الجيب



د. محمد الدققي



الى الشمال

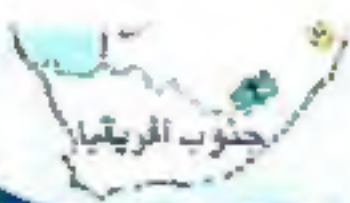
أخيرا يتم اللقاء ويلقى علاء عبد العظيم أسرة زوجته .
كان متوترا في انتظار هذه اللحظة ، لأنه يخشى ألا يروق لهم .
صحيح أن هذا لن يغير من الحقيقة شيئا ، ولن يعيد عقارب
الساعة للوراء ، لكننا نحب أن يقبلنا الآخرون أحيانا .
إلا أن اللقاء كان أسوأ مما توقعه .. إنها أسرة غريبة فعلا ..
ومع الوقت بدأ علاء يشعر بأنه قد خطا إلى مصيدة ، وأنه
لا يرغب إلا في الفرار من هذا الجنون .

خط الاستواء

مدار الجدي

العدد القادم

داء الأسد



المؤسسة
العربية الحديثة
للطب والنشر والتوزيع بالجامعة والكليات الطبية

التمن في مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم